مطبوعات
كتابي

لكل فنان قصة

رمبرانت
روبنز
فرانس هانز
هنرى مور
ڤان جوخ
جويا
مودليانى
بيكاسو
محمود سعيد
محمود مختار
شاجال
هنرى ماتيس
رنوار
اوتريللو
وعشرات غيرهم

بقلم وريشة
حسين بيكار

مطبوعات كتابى

لكل فنان قصة

بقلم وريشة

حسين بيكار

الناشـــر

مطبوعات كتابى

٧ شارع قناة السويس ـ مصر الجديدة

و ١٨ شارع العباسيين ـ مصر الجديدة ـ ت ٦٧٥١٢٦

تم الصف التصويرى والتجهيز فى

المطبعـــة العالميـــة

١٦ ، ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

تليفون ٢٩٣١٧ تلكس ٩٣٧٩٧ MEMO UN

عزيزى القارئ ..

لعلك تذكر أن كل عدد من أعداد « كتابى » التى صدرت - وعددها مائة وخمسة أعداد - كان يضم مجموعة منوعة من الموضوعات الملخصة ، بينها : المسرحية ، والمحاكمة ، وكتاب علم النفس ، وكتاب التراث من « كنوز الكتب القديمة » .. إلخ .. إلخ .

ولقد طالما توالت رسائلك إلى ، تطالبنى بأن أجمع لك كل نوعية من تلك المواد فى كتب مستقلة ، على حدة .. بحيث يستطيع القارئ المولع بالمسرحيات مثلاً أن يجدها مجتمعة معًا فى كتاب واحد ، أو عدة كتب يضم كل منها نحو عشر مسرحيات ، أو سبعا ، على الأقل .. وفقًا لطول كل منها أو قصرها .. بدلاً من أن يقرأها متفرقة فى عشرات من الأعداد السابقة .. وكذلك الحال بالنسبة للمولع بغير المسرحيات من مواد وأبواب « كتابى » ، فيجد كتب علم النفس مثلاً مجتمعة معًا فى كتاب ثان ، وقصص التاريخ وأشهر المحاكمات فى كتاب ثالث ، والروايات الملخصة فى كتاب رابع ، وكنوز الكتب القديمة (من أمثال « الياذة » هوميروس وجمهورية أفلاطون) فى كتاب خامس .. ثم مجموعة ثانية من المسرحيات .. فمجموعة ثانية من كتب علم النفس ، فمجموعة ثانية من كنوز الكتب القديمة وهكذا .. إلخ .

واستجابة لطلبك هذا ، أقدم لك فى هذا الأسبوع .

العدد الأول من «مختارات كتابى» التى أزمع بعون الله أن أقدم لك أعدادًا أخرى منها بالتناوب ، إلى جانب الأعداد الحديثة من « كتابى » و «مطبوعات كتابى» ، كما تجد فى البيان التفصيلى عن خطة استئناف هذه السلاسل فى مكان آخر من هذا الكتاب ..

وإذا كانت استجابتى لطلبك هذا قد تأخرت إلى الآن ، فما ذلك إلا لأن السلسلتين الأصليتين ـ « كتابى » و «مطبوعات كتابى» ـ كانتا قد توقفتا أو تراخى صدورهما بانتظام ، فترة طويلة ، لظروف لا دخل لى ـ ولا لك ـ فيها ، خضوعًا لعقبات ونزولاً على رغبات غفر الله لأصحابها والمتسببين فيها من المتسلطين ذوى العقد والأحقاد !.. فلما أتاح الله لى ـ ولك ـ فرصة تذليل تلك العقبات ، وازاحة أصحابها عن طريقى ، أمكن أن تعود السلسلتان الأصليتان إلى الصدور كسابق العهد بهما ، بل وأقوى ، وأن تنبثق عنهما سلاسل أخرى شقيقة أرجو أن تحقق لى ولك شتى «أحلامنا الثقافية» التى عشت وإياك نهدهدها معًا طوال السنوات الماضية ، منذ صدر العدد الأول من كتابى فى أول مارس ١٩٥٢ .

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

لحظة نـدم

صديقى ...

أكتب إليك من تحت أكوام الورق ..

ورق .. ورق .. ورق .. ورق .. ! !

أكتب على الورق .. أرسم على الورق .. أجلس على الورق .. أمشى على الورق .. آكل الورق .. أشرب الورق .. أستنشق الورق ..

أطوف العالم فى سفن من ورق ! اجفف العرق بالورق .

أتسلق جبال المعرفة بجبال من ورق ..

اشترى غذائى وكسائى وراحتى ، بل وعذابى بعملة من ورق ..

أصبحت مثل حشرة (العثة) التى لا تعيش إلا فى الورق وبالورق .

وترتفع تلال الورق من حولى لتصبح السكن والكفن والفراش واللحد .. وسجناً شاهق الجدران والقضبان والقلق ..

وأكاد أختنق .

أطمع فى طوق نجاة ينجينى من الغرق .

فالبحر طوفان أمواجه قصاصات بيضاء الزغب ، سوداء الهدير ..

وأخيراً يا صديقى . جاء الفرج .. ألقت المقادير بهذا الطوق .

يوم كامل .. بلا مواعيد .. بلا مسئوليات .. بلا أعمال مؤجلة .. والتليفون صامت صمت الموت .. عكفت على إعادة النظام إلى ما تراكم فوق المكتب . والمقاعد ، والنضد ، والأرفف ، والدواليب ..وتحت .. وفوق .. وخلف .. وبين كل شىء .. واتخلص مما لا لزوم له من هذه التلال .. وأفسح مكاناً لبعض الأوكسجين النقى ..

ورحت أنفض الغبار عن الأوراق القديمة .. وأغلبها قصاصات مهترئة تضم رسومًا وكتابات بعضها نشر ، وبعضها لم ير النور .. وكان بين هذا كله رسائلك القديمة التى يطيب لى قراءتها بين الحين والحين ، لاسترجاع ما كان يدور بيننا من حوار حول أحلامنا الشابة ، ولا أخفى عليك يا صديقى اننى شعرت هذه المرة ببعض الخجل ، بل بكثير من الخجل من تلك الشطحات الساذجة التى كانت أقلامنا المراهقة تخوضها بجراه ... ولكن كان يطمئننى أنها كانت خواطر لم تتجاوز حدود الصفحات التى كتبت عليها ، وأن أحدًا سوانا لم يطلع عليها ..

غير أن أحساسًا مفجعًا لم أشعر بمثله من قبل داهمنى بعنف وأنا أقلب بقية الأوراق .. كنت أفاجأ بأشياء خطتها يدى . كتابةً ورسمًا .. فأجد فى بعضها ما هو بالغ الجودة ، وأجد فى بعضها الآخر ما هو بالغ السوء والشناعة . فأتساءل أين أنا من هذا وذاك ؟ وكيف يجمع إنسان واحد النقيضين فيكون الأبيض والأسود معًا ؟؟ ويكون دكتور (جيكل) صاحب الوجه الوسيم والوجه الدميم فى آن واحد ؟؟

ووجدتنى أقف عاريًا أمام شبح المسئولية لا أدرى كيف أخفى سوءتى عن عيون التاريخ ، والتاريخ لا يرحم ..

وقلت لنفسى مطمئنًا .. ربما تشفع لى بعض الحسنات فيغض قضاتى طرفهم عن البقع السوداء التى تلطخ الثوب الأبيض .

إن الله يغفر الذنوب جميعا .. والحسنات يذهبن السيئات .. هذا هو قانون السماء .. ولكن هل تسرى عدالة السماء فوق هذا الكوكب المظلم الظالم ؟؟

ها هو ذا الماضى كله أمامى منثور الصفحات ، بحسناته وسيئاته .. ولكن الصفحات السوداء تبدو أكثر بروزًا وأشد وضوحًا وأكبر حجمًا .. إنها تطفو فوق السطح تحملق فى وجهى بقسوة ، وكأنها أصابع اتهام .. أو بصمات مطبوعة فوق

جسم جريمة لا سبيل لانكارها .

ووجدتنى محاصرًا فى المأزق الذى يجد فيه المتهم نفسه عديم الحيلة أمام الأدلة الدامغة .. وبرزت أمامى فكرة التخلص من هذه الادلة اللعينة .. ووجدت الافكار الخبيثة ثغرة تتسلل منها إلى قلقى المرتعش (كيف أتخلص من شبحى الأسود ، وكيف أمحو البصمات كما يفعل محترفو الإجرام ؟) إن الفنان يجب أن يبدو للناس شخصًا واحدًا حتى لو اضطر أن يخفى حقيقته وراء قناع ملاك .. يجب أن يبدو نظيفًا أمام الناس أو هكذا يجب أن تبدو ثيابه الخارجية على الأقل ..

وخطر ببالى أن أتخلص من جسم الجريمة . وأن أمزق هذه التفاهات وألقى بها فى النار .. فلا يبقى أمام التاريخ سوى الوجه النظيف البراق الذى يضمن لإسمى السمعة الطيبة إلى الأبد ..

وهنا سمعت هاتفًا فى أعماقى يقول : وماذا ستفعل بما تناثر من أعمالك فى كل مكان حتى ملأت الدنيا وفاضت ؟؟ أنت لا تملك سوى ما فى حوزتك . أما ما هو خارج قبضة يدك فلا سلطان لك عليه .

وتمنيت فى هذه اللحظة لو استطعت أن أطوف العالم لامحو بصماتى المتناثرة فوق الصفحات هنا وهناك .. وكنت أعرف أنها أمنية غير قابلة للتحقيق ..

وتذكرت يومًا بغيضًا كنت أزور فيه أحد أصدقائى القدامى إذ فوجئت بعمل فى غاية السوء من أعمالى القديمة معلقًا فى حجرة الصالون يحملق فى وجهى بصفاقة ويقول : هل تذكرنى يا أبى ؟؟ أنا ابنك !! أنا من لحمك ودمك !! أنا من صلبك وأعصابك .. هل تستطيع أن تنكر ؟ هل ضعفت ذاكرتك إلى هذا الحد فنسيت أحد ابنائك ؟؟ إن شهادة ميلادى تحمل اسمك وتوقيعك فى أسفل اللوحة .. أنظر بنفسك ..

لقد كان هذا الملعون ابنى حقًا .. نعم .. ولكنه كان فى نظرى ابنًا

غير شرعى .. ابن سفاح .. فرضته نزوة طائشة خارجة عن ارادتى .. ومن حقى ألا أعترف به .. وأن أنكر بنوته ، وأتركه لقدره ابنا لمجهول .. وفعلاً فكرت فى التخلص منه .. ورحت اساوم صديق على أن أبادله هذه اللوحة بأخرى أكبر وأحسن وأثمن منها عشرات المرات لكنه رفض قائلاً : إن هذه اللوحة ملكى ولن استبدلها ولا بألف لوحة غيرها .

وأنهزمت أمام اصرار المالك . إن الملكية المادية قوة يساندها القانون .. أما الملكية الأدبية فليس لها أى اعتبار . ولقد اشترى هذا الصديق قطعة منى بماله .. ومن حقه ألا يردها .. والشاة عندما تذبح ويباع لحمها للزبون لا يمكنها استرجاع لحمها وخاصةً بعد أن تستقر فى البطون ..

إننى أعرف أن الفنان . كل فنان .. تمر عليه لحظات لا يرضى فيها عن عمله .. لحظات فشل تتخلل لحظات النجاح . وإن خط بيان الجودة فى انتاجه يتأرجح بين صعود وهبوط .. وهذا أمر طبيعى .. ولكن هل يمكن أن يهبط مستوى فنان عن المعدل المعقول ؟؟ وأن يهوى إلى حضيض بلا قرار حتى وهو فى أسوأ حالاته ؟؟ إذا حدث هذا كما حدث لى .. فإن الفنان يغوص فى قاع الندم ويقول كما قال أهل الخطيئة .. (يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا) .

بهذه القسوة يا صديقى يحكم الفنان الصادق على نفسه قبل أن يحكم عليه الغير .. ولكن ما جدوى الندم والزمن لا يعود إلى الوراء .

لقد تناثرت هذه المعلومات فى وقت ما فوق صفحات الصحف . وكان جمعها بين ضفتى كتاب أمانة لعلها تفيد طلاب المعرفة .. وأنا استميحك عذرًا يا صديقى إذا لمست فيها بعض الشتات .. وليشفع لى عندك حسن النية ونبل المقصد ...

حسين بيكار

العبقرية .. الحائرة
بين الفن والسياسة !

● **السياسة** والفن شيئان متناقضان ، يستحيل الجمع بينهما تحت سقف واحد .. هكذا تقول النظرية .. ولكن التاريخ يحكى قصة فنان أسطورة ، قام بدور سياسى خطير ، متفوقاً على جميع دبلوماسيي عصره ، وكان لدوره أكبر الأثر فى تقرير مصير بعض الدول الأوربية الكبيرة ، فى حين لم تمنعه أعباؤه السياسية الخطيرة من أن يترك وراءه أكبر وأضخم إنتاج تركه فنان فى التاريخ !

استطاع أن ينقل الدفء من فنون منطقة الاعتدال فى الجنوب إلى فنون الشمال .. وأن يحول فن الأراضى الواطئة من قتامتها واهتماماتها بمظاهر الحياة اليومية وصور الشخصيات ، إلى مباهج الميثولوجيا اليونانية والأحداث التاريخية والمواقف الدينية التى كانت لها تقاليد عريضة فى إيطاليا .. وذلك بقدرته الفائقة على حبك تكويناته البالغة التعقيد ، وألوانه التى لها تأثير الشمبانيا المعتقة !

* * *

● **اسمه** «بيتر بول روبنز» Rubens ، أحد الذين صنعوا تاريخ بلجيكا التى تفتقر إلى تاريخ . ولد فى ألمانيا بعيداً عن وطنه الأصلى ـ «الأراضى الواطئة» ـ التى هرب منها أبوه لاتهامه بميوله «البروتستانتية» . وكانت بلاده فى حالة اضطراب شديد ، نتيجة صراعها العنيف من أجل التحرر من الحكم الأسبانى .

وفى «كولونى» بألمانيا ، عمل الأب مستشاراً للأميرة «ماريا» السكسونيه ،

التى لم تلبث أن وقعت فى غرامه ! ولما بلغ الأمر مسامع زوجها الأمير حكم عليه بالسجن .. فبذلت زوجة «روبنز» المستحيل لإخراجه ، حتى تمكنت من الإفراج عنه . وتحت ضغط الصعوبات المالية والمصاريف الباهظة التى كلفتها قضية الإفراج ، عاشت الأسرة فى ضائقة مالية شديدة ، إلى أن مات الأب تاركاً ثلاثة أطفال .

واضطرت الأسرة إلى العودة إلى (أنتويرب) ، وكان عمر «بيتر روبنز» وقتئذ عشر سنوات . حيث بدأ يدرس الفن على يد ثلاثة من المصورين ... وعندما اكتمل نضجه سافر إلى إيطاليا لينهل من التراث الإيطالى العريق ، وخاصة فن عصر النهضة .

● وفى (فينيسيا) ظهرت المواهب الخارقة على الفنان الشاب ، ولم يكن قد تجاوز الثلاثة والعشرين .. الأمر الذى لفت إليه أنظار «دوق مانتوا» ـ وكان من أكبر رعاة فنون عصر النهضة وقتئذ ـ فلم يتردد فى تعيينه مصوراً فى بلاط دوقيته ..

وكانت أول مهمة دبلوماسية كلفه بها الدوق هى إيفاده إلى روما ، لحضور حفل زفاف الأميرة «ماريا دى ميديتشى» ـ أخت زوجة الدوق ـ على «هنرى الخامس» ملك فرنسا . ولما كان أمراء إيطاليا يتسابقون من أجل التقرب إلى ملوك أسبانيا ، صاحبة أكبر نفوذ فى أوربا وقتئذ ، فى سنة ١٦٠٣ ، عهد إليه الدوق أن ينوب عنه فى توصيل هداياه النفيسة إلى الملك فيليب الثالث ـ ملك أسبانيا ـ إعراباً عن ولائه . وفى هذه المهمة ، وضحت عبقرية «روبنز» الدبلوماسية ، وبدأت الأنظار تتجه إليه كأحد الدبلوماسيين الممتازين ، إلى جانب عبقريته الفذة فى فن التصوير .

وجاءته رسالة من (أنتويرب) تنبئه بخطورة حال أمه ، فاستأذن الدوق فى السفر لرؤيتها ، ولكن الموت كان أسبق إليها منه ، إذ ماتت قبل وصوله .. وبقى



«الاختطاف» لوحة للفنان بول روبنز

بعد ذلك فى أنتويرب حيث عينه الحاكم الأسبانى «الأرشيدوق البرت» ـ زوج الأميرة إيزابيللا ـ مصورًا خاصًا للبلاط ، إلى جانب مهمته السياسية كمستشار للقصر .

* * *

● **وتزوج** «بيتر روبنز» من ابنة أحد الأثرياء ـ التى ظهرت فى كثير من لوحاته ـ وعاش فى بحبوحة من العيش ، تنهال عليه الطلبات التى اضطر إلى رفض المئات منها .. وأمام كثرة أعماله ، تحول مرسمه إلى «مصنع» ضخم ، يضم عددًا غير قليل من المتخصصين فى تصوير الأشجار والحيوانات والملابس ، وغيرها من التخصصات ، فكانوا يقومون بتجهيز اللوحات للأستاذ الكبير ، ثم يقوم هو بوضع اللمسات الأخيرة التى يتميز بها أسلوبه ـ ثم يوقع عليها بإمضائه .

وأصبح قصر الفنان أحد المزارات الهامة فى المدينة ، لما يحتويه من أفخر التحف والرياش والأثاث .

* * *

ومن أروع اللوحات التى رسمها «روبنز» فى هذه الفترة ، اللوحة التى رسمها تخليدًا لذكرى زواجه ، رسم فيها نفسه مع زوجته فى وضع شاعرى يضمهما مناخ يفيض بالسعادة والبشر ..

وتعددت اللوحات التى أنجزها بعد ذلك لزوجته الحسناء ، غير أن بعض

الشحوب بدأ يظهر حول عينيها الواسعتين ، ويتسلل إلى شفتيها اللتين تعلوهما ابتسامة باهتة ..

* * *

.. ويأبى القدر أن تكتمل سعادة الفنان العبقرى، فيخطف الموت زوجته ، تاركة وراءها مظاهر من الأبهة والفخامة والمجد نادرًا ما تتوافر لدى أسرة واحدة .

* * *

كانت الصدمة قاسية على الفنان المرهف الحس ، الذى بذل جهدًا كبيرًا للتغلب على وقع الحادث ، وكان دائمًا يذكر زوجته الراحلة ، ويشيد بخصالها النادرة ..

ولكن «روبنز» الذى لم يحتمل حياة الوحدة قرر بعد أربع سنوات من الترمل أن يتزوج من فتاة عمرها ستة عشر ربيعا وتصغره بسبعة وثلاثين عامًا اسمها «هيلين نورمونت» ...

وفى خطاب لأحد أصدقائه كتب يقول عن زواجه الثانى ... «قررت الزواج مرة ثانية لأننى لم أعد مستعدًا للعيش عزبًا فى نهاية العمر .. لقد تزوجت من فتاة شابة من عائلة متوسطة الحال رغم محاولة جميع من حولى تزويجى من سيدة أرستقراطية متقدمة فى السن .. إن كل ما كنت أخشاه هو الغرور الذى تتميز به هذه الطبقة ، وخاصة فيما يختص بالجنس ، وهذا ما دعانى إلى اختيار فتاة متوسطة الحال ، ترانى أقبض على فراجينى وأعبث بألوانى دون أن يبدو عليها التبرم أو الاعتراض» ! إن متعة الزواج من فتاة فى ربيع العمر تفضحها لوحاته

التى رسمها لزوجته الجديدة ، وتكشف عنها ملامح السعادة التى عادت إلى الظهور فى لوحاته النابضة بالحياة . وكانت أول لوحة رسمها بمناسبة زواجه الثانى صورة زوجته الشابة فى ثوب العرس ، بدت فيها أقل تكلفاً وتحفظاً من الصورة التى رسمها لزوجته الأولى ، حيث ظهرت فتحة الصدر أكثر اتساعاً ، بل إنه بعد ذلك لم يتورع عن تجريدها من ثيابها ورسمها عارية كحواء ...

ولقد تعددت الأقاويل حول اللوحة التى رسم فيها زوجته عارية تماماً إلا من فراء طويل يستر جزءاً يسيراً من جسدها البض .. ولا يستطيع أحد أن يستبعد الإحساس الجنسى الذى أوحى بهذه اللوحة التى قيل إنها تمثل «فينوس» آلهة الجمال !!!

● **وتقدم** العمر بالفنان الكبير الذى تعددت أسفاره ومهامه ، كسفير متجول لبلاده ، إذ توسط لدى أسبانيا لمناصرة «ماريا دى ميديتشى» على الكاردينال ريشيليو الذى كان يقاسمها الحكم ..

وعندما أحس الفنان برغبة فى الاستقرار والتفرغ الكامل للفن . وخاصة بعد أن أصيب بداء النقرس بدأ ينعم بالحياة التى كان يحلم بها ، بين قصره فى أنتويرب وقصره الريفى ، برفقة زوجته الشابة .. مستغرقاً فى إنتاجه الذى لم يتوقف ، حتى انتهت حياته سنة ١٦٤٠ ، وهو فى قمة المجد والشهرة والثراء الذى لم ينعم بمثله فنان من قبل !

* * *

المـرأة فى حياة «روبنز» وفى فنه ...

عيون الفنان مثل المرايا المقعرة ، تنعكس عليها الأشياء بصور وأشكال مختلفة ومتفاوتة . وعالم الفنانين ملىء بصور المرأة ، إلا أنها تختلف من فنان لآخر ، فبينما تبدو فى أعمال «مايكل انجلو» مسترجلة مكتنزة العضلات ، تجدها عند «رافائيللو» ناعمة كزهرة الكرز ، رقيقة كالفراشة . أما «روبنز» فالمرأة عنده «متختخة» «مربربة» مثل كتلة من اللحم والشحم ملفوفة فى ورق السلوفان ! !

وليس أقدر من «روبنز» على رسم النساء العاريات ، ولا أبرع منه فى التعبير عن البضاضة التى تنضح من أجسادهن المتوردة ..

وما أكثر الجدل الذى أثير حول نساء «روبنز» البدينات اللاتى قيل أنهن وسيط يفرز من خلالهن رغباته الحيوانية المكبوتة .. ولوحات «روبنز» لا تنكر هذه الحقيقة ، ولكنها أيضًا لاتنفى دور المرأة النبيل كزوجة وأم ورمز .. وربما كان تعلقه «الفرويدى» العنيف بأمه ، وتقديره لتسامحها البطولى النبيل مع أبيه الذى كان على علاقة غير شريفة مع زوجة الأمير «وليم» ، ربما كان هذا التعلق من العوامل التى جعلته يعكس هذا الحب على كل نسائه اللاتى تضمهن لوحاته ..

ولا شك أن «روبنز» كان يجد متعة فى تصوير النساء ، وخاصة فى أوضاع مثيرة وعاريات من الثياب تمامًا .. وكثيرًا ما كان يستوحى موضوعاته من الميثولوجيا اليونانية أو القصص الدينى .. وكان يطيب له ذلك خاصة فى السنوات الأخيرة من حياته ، حيث كانت مثل هذه اللوحات تلقى رواجًا كبيرًا بين طبقة البرجوازيين والنبلاء وأثرياء عصر الانتعاش الاقتصادى ..

غير أن الإحساس بالجنس لم يكن المعنى الوحيد الذى توحى به لوحاته . فكثيرًا ما كان يتخذ من العرى والبدانة إشارة للخصوبة والرخاء والسلام . حيث أن الرخاء لا يمكن أن يتحقق فى ظل الحروب . ويبدو ذلك المعنى فى لوحة «الحرب والسلام» التى أهداها إلى الملك «شارل الأول» ملك انجلترا تعبيرًا عن السلام الذى استتب بين أسبانيا وانجلترا . إذ تبدو «فينوس» وسط اللوحة عارية وممتلئة الجسم ، وحولها أكوام من الفاكهة الشهية والخير الوفير ، بينما يظهر «مارس» إله الحرب فى الخلفية وهو ينظر إليها شذرًا ، وكأنه يهدد السلام الذى تنعم به آلهة الجمال والحب ..

وهناك من لا يزال يرى أن نساء «روبنز» غاية فى السمنة والبدانة إذا قارنهن بمقاييس الجمال فى هذه الأيام . ولكننا نخطئ كثيرًا إذا ركزنا على هذه النقطة ولم نتأمل القيم التصويرية التى تفيض من لوحاته ، وهى كثيرة وغزيرة وبالغة الدسامة ، مثل نسائه البدينات .

* * *

عبقــرى
أجـداده مــن الخبــازين !

● **كان أبوه** خبازًا ، وكذلك كان جده .. ولكنه كان من عجينة نادرة صنعتها أفران السماء .. إنه «رمبرانت» عبقرى عصره !! ومعجزة زمانه !!

وليس من المصادفة أن يجمع مؤرخو الفن ونقاد العالم على أن «رمبرانت» أعظم مصور أنجبه التاريخ !! وليس ضربا من ضروب المبالغة أن تباع إحدى لوحاته فى أكبر مزاد للتحف فى لندن ـ منذ بضع سنوات ـ بمليونين وربع المليون من الدولارات ، وهو أكبر مبلغ دفع ثمنا للوحة واحدة فى التاريخ !

فليس بين مصورى العالم من استطاع أن يروض النور والظل ويصنع منهما ملاحم تصويرية مثلما فعل «رمبرانت» . ومن الغريب أن الفنان الذى تدفع الملايين ثمنا للوحاته ، مات معدما ، لا يمتلك سنتا واحدا .. بعد أن عاش آخر أيامه مفلسا يطارده الدائنون ، وتحيط به مأساة إنسانية كان من الممكن أن تشل نبوغه ، لولا أنه كان يقاوم آلامه باستغراقه فى فيض النور الذى ينبثق من ريشته فيضىء الحياة من حوله .. ويبدد ظلمات أحزانه ...

ثلاثة قرون مضت تماما على وفاته ، بعد أن أصبح إحدى العلامات فى طريق عصر النهضة الهولندى ، ففى أيامه نالت هولنده استقلالها ، بعد كفاح مرير ضد الاحتلال الأسبانى ، وانتعشت البلاد اقتصاديا وصناعيا حتى أصبحت من أكبر الدول المنتجة فى أوربا ، وأصبحت تنافس بريطانيا فى سيادة أسطولها التجارى للبحار .. وصاحبت الانتعاش الاقتصادى نهضة ثقافية وفنية جعلت من هولنده إحدى الدول الهامة فى دنيا العلوم والفنون فى شمال أوربا .

● **ولد** رمبرانت فى مدينة (لايدن) فى ١٥ يوليو سنة ١٦٠٦ ، وكان أبوه طحانا ، وكانت أم ابنة أحد خبازى المدينة .. وكان هو أصغر اخوته السبعة ، الذين احترف معظمهم التجارة ، كما أصبح أحدهم خبازا مثل جده لأمه ..

بدأ دراسته الابتدائية كأى طالب عادى ، دون أن يظهر عليه أى نبوغ . ثم التحق بجامعة (لايدن) ليتعلم اللاتينية ، غير أنه لم يبد أى استعداد لإكمال تعليمه ، إذ بدأت اهتماماته كلها تتجه نحو الرسم .. واستطاع أن يقنع والده بإلحاقه بمرسم أحد الفنانين ، واسمه «فان سواننبرج» فتتلمذ عليه لمدة ثلاث سنوات ، سافر بعدها إلى أمستردام ، ليتتلمذ على الفنان «بيتر لاستمان» ، الذى كان من الفنانين المعروفين فى ذلك الوقت .

ولما أحس «رمبرانت» بالاكتفاء ، عاد إلى (لايدن) ليستقل بنفسه ويعمل فى مرسمه الخاص . وبدأت تتفتح أمامه أبواب الشهرة .

كان اهتمامه كبيرا بالصور الشخصية : رسم أمه ، وزوجته ، وخليلته ، وابنه ، وأصدقاءه .. ورسم نفسه عشرات المرات ، حتى أنك لتستطيع أن تكون من مجموع صوره شريطا مسلسلا لجميع أطوار حياته .

وكان بارعا فى اقتناص ملامح الوجه وتأكيد الشخصية ، فتهافت عليه أثرياء القوم ليصورهم ، أفرادا وجماعات ، حيث كان من مظاهر الترف فى ذلك الوقت ـ الذى بلغ فيه الثراء أقصاه ـ أن يكون لكل شخص مقتدر صورة زيتية له ولأفراد أسرته ، يزين بها جدران منزله .. ولذلك كان تصوير الأشخاص مهنة مربحة جدا ، فى ذلك الوسط البورجوازى الحديث العهد .. ولما رأى «رمبرانت» أن (لايدن) لا تتسع لمواهبه ، سافر إلى العاصمة (أمستردام) . وهناك بدأ يزاول نشاطه وتنهال عليه الطلبات .. وكان أهم ما أبدعه لوحته الشهيرة المسماة «محاضرة فى التشريح» ، التى تجلت فيها قدرته على إظهار تعبيرات الوجوه المختلفة



«صورة شخصية لسيدة» للفنان «رمبرانت»

لمجموعة الأطباء المحيطين بالجثة الراقدة فوق المشرحة ، والإيقاع الجميل الذى تحدثه الرؤوس التى تعلو الياقات البيضاء المنبثقة من ظلام الخلفية القاتمة .

* * *

●وفى سنة **١٦٣٣** ، تزوج رمبرانت من «ساسكيا» ابنة أحد تجار التحف فى أمستردام .. وكانت على جانب كبير من الجمال والثراء ، أضفت على حياته الجديدة جوا من السعادة والبهجة انعكس على لوحاته ، وخاصة اللوحة الشهيرة التى تجمعهما معا .. والتى رسمها فى بداية حياته الزوجية .

وكان رمبرانت يهوى جمع التحف والرياش الفاخرة والسيوف والحلى ، والخوذات والعاديات القديمة .. يدفع من أجل الحصول عليها مبالغ باهظة ، حتى تحول منزله إلى شبه «متحف» . وكان سعيدا بالثراء الذى بدأ ينهال عليه ، وبزوجته الحسناء ، وبمجموعته التى كان يعتز بها ، وبابنه الذى رزق به فى العام الثانى من زواجه ..

ولكن الحياة تأبى أن تواصل ابتساماتها للعبقرية النادرة ، فهاجمت الأمراض زوجته الشابة عقب الولادة ، ولم تلبث أن عاجلتها المنية ، تاركة وليدها وزوجها وديعة لقدرهما الغامض ..

* * *

كان هذا التاريخ بداية المتاعب فى حياة الفنان العبقرى .. إذ تولت المشرفة على شؤون منزله ـ وهى أرملة تدعى «جيرتغ ديركس» ـ تربية الطفل بعض

الوقت .. ثم اضطر إلى تعيين مربية أخرى لابنه ، اسمها «هندريك ستوفل» ، فأثار وجودها الغيرة فى قلب المشرفة . وأصبحت الحياة فى المنزل سلسلة من الشجار والمشاحنات بين المرأتين ، بسبب تنافسهما على التقرب إلى «رمبرانت» !.. إلى أن تقدمت «جيرتغ» بدعوى أمام المحكمة ، زاعمة أن سيدها حاول اغتصابها ، بعد أن وعدها بالزواج ، ثم أخلف وعده . ولكن «رمبرانت» أنكر جميع ادعاءاتها ، واضطر إلى طردها لتعيش فريسة الأمراض ، وتموت فى أحد الملاجىء .

وأصبحت المربية «هندريك» ـ بعد ذلك ـ صاحبة الأمر والنهى فى المنزل ، وتوثقت العلاقة بينها وبين الفنان ، حتى كادت أن تؤدى إلى الزواج ، لولا أن زوجته السابقة «ساسكيا» كانت قد أوصت ـ قبل وفاتها ـ بأن تؤول كل ثروتها إلى زوجها ، بشرط ألا يتزوج من بعدها ، وإلا آلت أموالها جميعا إلى ابنها «تيتوس» .

اكتفى «رمبرانت» بهذه العلاقة غير الرسمية ، التى أساءت إلى سمعته فى بلد محافظ شديد التعصب .. وخاصة بعد أن أنجب منها طفلة غير شرعية ، أسمياها «كورنيليا» ، ودعيت من أجلها خليلته للمثول أمام الكنيسة البروتستانتية ، التى أدانتها وحكمت عليها بحرمانها من الحقوق الكنسية عقاباً على جريمتها الأخلاقية الكبرى !! .

* * *

● **وكبر** «تيتوس» ، وشعر أنه قد حان الوقت لكى يقوم بواجبه لإنقاذ أبيه من ورطته المالية ، فاتفق مع مربيته على الحجر على أبيه ، وتكوين شركة فيما بينهما يتوليان منها الصرف والإنفاق عليه ، والقيام نيابة عنه بتدبير جميع شئونه المالية ، دون أن يكون له أى حق فى التصرف فى أى شىء من أمواله إلا عن طريقهما .

وتم التصديق على أعجب عقد أبرم بين ابن وخليلة أبيه .. لإنقاذ فنان عبقرى من براثن الديون !

وعاش «رمبرانت» بعد ذلك فى كنف ابنه وخليلته ، لا يصنع شيئا غير الرسم .. وسارت حياته الرتيبة فى ظل العوز والفقر ، حتى اختطف الموت «هندريك» خليلته ومديرة شؤونه .. وأظلمت الحياة فى وجهه من جديد !!

وبدأت مسحة من الحزن تظهر على وجوه شخصياته ، بددها بعض الشىء زواج ابنه من ابنة أحد الصاغة .

غير أن الموت عاد واختطف ابنه فى نفس العام الذى تزوج فيه ، تاركا فى أحشاء زوجته جنينا حكم عليه باليتم قبل أن يولد .

وفى ٤ أكتوبر سنة ١٦٦٩ ، انطفأت جذوة الريشة التى كان يشع منها النور .. وبقى التراث الشامخ يحكى قصة الرجل الذى حول مجرى النهضة من السهول الدافئة حول حوض البحر الأبيض ، إلى البلاد الواطئة المطلة على بحر البلطيق ، فى أقصى الشمال .

* * *

نكــرات .. ولكن خالــدات ! !

● **لو كانت** «الموناليزا» على قيد الحياة وشاهدت الطوابير الطويلة التى تقف أمام لوحتها مأخوذة بجمالها ، لما اتسعت الدنيا لسعادتها وزهوها ، ولما ندمت على الساعات الطوال التى جلستها أمام الفنان «ليوناردو دافنشى» ساكنة بلا حراك ، تشع من شفتيها أعذب وأشهر ابتسامة عرفها التاريخ !

ولاشك أن كل حسناء تحسد «الموناليزا» وتتمنى أن تجلس أمام فنان يسجل جمالها قبل أن يذبل تحت وطأة السنين .. فليس هناك أقدر من ريشة الفنان على تحدى الزمن .. وتثبيت الجمال فوق اللوحة الخرساء لتبقى هناك تتحدى الفناء ! !

ولكن .. هل هذا هو رأى كل «موديل» تحترف الوقوف أمام الفنان ساعات طويلة جامدة كالصنم ، لتلهمه شيئا يسقطه فوق لوحة أو تمثال ، نظير أجر ضئيل تتقاضاه ؟!

* * *

● **عندما** عرض «إدوارد مانيه» لوحته الشهيرة «العشاء فوق النجيل» فى صالون باريس ، سنة ١٨٦٣ ، ولوحة «الأوليمبيا» ، التى صور فيها غانية حسناء تتكىء على وسادة حريرية وترقد عارية فوق فراشها الوثير ، ومن خلفها وصيفتها الزنجية تقدم لها باقة من الزهور ، وتحت قدميها قطة سوداء تعبر ـ كما قال «بودلير» ـ عن كل الغرائز والنوازع الشيطانية .. عندما عرض «مانيه» هاتين اللوحتين ، قوبلتا بموجة عارمة من السخط والامتعاض .

لقد كان رأى الناس فى الفنان و «الموديل» ـ وقتذاك ـ أنهما فاجران ، يدعوان

إلى الفساد والانحلال والعبث بالقيم الأخلاقية ... ولكن «فيكتورين مورنييه» ـ الموديل التى جلست أمام الفنان عارية تماما لينقل عنها موضوعه الحساس ـ لم تتأثر بغضبة الجماهير. فقد كانت واثقة من دورها الإنسانى الكبير، متأكدة من أن الجمال سوف يتغلب على الانفعال المؤقت، وأن العرى فى لوحات الفنانين ليس عريا دعاريا فاضحا، يخدش الحياء ويثير الغرائز، وإنما هو عرى عذرى يسمو بالغرائز ويرقى بها إلى مراقى التسبيح بجمال صنع الخالق وعبقرية الطبيعة.. ولقد أثبت الزمن صدق ظنها.. فاليوم تحتل كلتا اللوحتين مكان الصدارة بين روائع الفن العالمى فى متحف «اللوفر».. وأصبح اسم «فيكتورين» ـ الذى تلوث بأبشع الاتهامات بالأمس ـ محاطا بهالة من التبجيل والاحترام كتلك التى تحيط بهامات سيدات أرقى المجتمعات!

* * *

● **إن وراء** آلاف اللوحات الشهيرة التى تزخر بها المتاحف، آلافا من الوجوه النكرة التى لا نعرف عن أصحابها شيئا.. إنهم جنود مجهولون، وشموع احترقت فى محراب الفن.. وقليل من الناس من عرف الجهد الشاق، والصبر العنيف، وقوة الاحتمال التى يتطلبها ذلك العمل المضنى، الذى نحيطه بهذه الهالة الأسطورية.. وربما كانت «الموديل» الحسناء «اليزابيث سيدال» إحدى «الموديلات» التى أحاطت هذه المهنة بهذه الهالة الخداعة.. فقد وقفت ابنة صانع السكاكين، ذات الجمال الملائكى.. أمام عدد من الفنانين يستوحون من جمالها ملامح بطلات الأساطير والتاريخ القديم.. قامت بدور «سيلفيا» أمام الفنان «هولمان هنتس»، و«أوفيليا» أمام «ميليه»، و«بياتريس» أمام «روزيتى»..

ولكنها كانت بالنسبة للفنان «روزيتى» ـ أشهر الفنانين الروفائيليين ـ أكثر من «موديل».. أحبها بعنف ، حبا من نوع الفن الذى ينبثق من ريشته طاهرا عذريا ، روفائيلى العبير.. إذ كان ـ حسب قوله ـ لا يجرؤ على لمس شفتيها ، حتى لا يدنس جمالها الملائكى !

كانت هذه الطهارة الملائكية سبب شقاء «اليزابيث» ، فقد عانت سنوات من اليأس والوعود المتكررة بالزواج ، قبل أن يتزوجها «روزيتى» وينجب منها طفلا ولد ميتا.. ولم يدم زواجهما طويلا ، إذ اختطفها الموت ولم تتجاوز التاسعة والعشرين ربيعا ، عقب جرعة كبيرة من عقار مخدر..

لم تكن «اليزابيث» تقوم بعملها كفتاة محترفة ، بل كانت تقبل عليه بقلبها وكيانها كله.. والمعروف عنها أنها عاشت عليلة الجسد ، نتيجة الإرهاق فى عملها الذى كانت تؤمن به وتتفانى فى سبيله . ويروى عنها أنها كانت ترقد داخل حوض ملىء بالماء ـ وهى بكامل ملابسها التاريخية ـ تمثل دور «أوفيليا» أمام الفنان الشهير «ميليه» وكان الفنان يضع مصباحا غازيا تحت الحوض ليكسب الماء بعض الدفء ، ولكن المصباح كان ينطفىء فجأة دون أن يلحظه الفنان المستغرق فى عمله ، ودون أن تتململ الفتاة أو تشكو من برودة الماء.. وكان هذا أحد الأسباب التى عجلت بوفاتها !

* * *

● **ولعل** أشهر موديلات العصر الحديث هى «سوزان فالادون» ، التى وفدت إلى باريس وهى طفلة ، فى صحبة فرقة من الممثلين المتجولين ، ثم احترفت بعد ذلك مهنة الوقوف أمام الفنانين كموديل ، تتنقل بين مراسم «لوتريك»

و «بوفيس دى شافان» و «رينوار».. وخلال هذه الفترة ، ظهرت على الموديل الشابة مواهبها الفنية النادرة .. إذ كانت فى فترات استراحتها تعبث بالألوان والخطوط على سبيل التسلية ، فلاحظ «لوتريك» أن وراء هذه الخطوط موهبة ذات شأن ، وشجعها على المضى فى ممارسة التصوير فبرعت فيه ! وتوثقت علاقتها مع «براك» و «ديران» ، و «بيكاسو» ، وغيرهم من الفنانين الطليعيين فى ذلك العصر .

إن أجر «الموديل» يتحدد بعدد الساعات التى تقفها أمام الفنان ، بملابسها أو عارية .. وهى تسعيرة تختلف من بلد إلى بلد ، ولكن هذا الأجر ـ مهما ارتفع ـ لا يوازى الجهد الشاق الذى تبذله «الموديل» لتوحى للفنان بعمل يكتب له الخلود . أما اسمها .. فيطويه النسيان ! ! !

البهلوانة التى دخلت التاريخ

● **لم تكن** حياة «سوزان فالادون» فى حاجة إلى تحويلها إلى قصة ، فقد كانت أسطورة حقيقية صاغ أحداثها القدر وحده .. فلا أحد يدرى من أين جاءت هذه الشيطانة الصغيرة ، التى كانت تتنقل مع الفرقة المتجولة من شارع إلى شارع ، ومن مقهى إلى مقهى ، تعرض ألعابها البهلوانية فى طرقات باريس ، ثم تنحنى لتلتقط ما يلقيه إليها المارة من عملات معدنية ، مثلما تلتهم القطة الجائعة ما يلقى إليها من فتات الخبز .

ولا أحد يعلم كيف ظهرت هذه البهلوانة بعد ذلك فى مراسم الفنانين ـ فى حى مونمارتر ـ تقف أمامهم عارية كحواء ، يقطفون من جسدها الرشيق أجمل خطوطه وأرق قسماته ، ليودعوها لوحاتهم التى خلدها التاريخ .

* * *

● **فهل** هناك علاقة ما بين عمل «البهلوانة» وعمل «الموديل» ؟؟ ربما كان تناسق جسم «سوزان» الرياضى هو «جواز المرور» الذى فتح أمامها الباب على مصراعيه إلى مراسم كبار الفنانين ..

ومع انحسار القرن الماضى ، كانت الصبية «سوزان» تتردد على مراسم «ديجا» و «بوفيس دى شافان» ، و «رينوار» ، و «تولوز لوتريك» ، يشع من محياها دفء صارخ ، ويتدفق من جسدها البض فيض من أنوثة متفجرة ..

وترعرعت البهلوانة الصغيرة فى ظل كبار الفنانين ، وأصبحت

«ماريا الرهيبة» ـ كما كان يسميها (ديجا) ـ «الموديل» المفضلة لهم جميعا ، يتبادلونها فيما بينهم ، ويدللونها كطفلة لقيطة نضجت مبكرة ، ليتقمص جسدها الشيطان ..

وكانت تقف ساعات بجوار المدفأة ثابتة الحركة عارية تمامًا ، تصغى إلى صوت احتكاك فرشاة الفنان وهى تلامس سطح اللوحة ـ بعصبية تارة وبرفق تارة أخرى ـ وكأنها تهمس فى آذان الصمت الذى يغمر الغرفة المعبقة برائحة الزيوت والألوان .. بينما ينساب من زجاج السقف ضوء ناعم يتلألأ فوق بشرتها العاجية ، فيتناغم مع ألوان الستائر التى تحيط بها من كل جانب .. وعندما يستبد بها الإعياء ، كانت تهبط من فوق منصتها لتجلس أمام اللوحة ، تحملق فيها وكأنها تمتص عصاراتها بعينين ظامئتين .

وفى غفلة من الفنان ، تمتد يدها لتلتقط ورقة ترسم عليها بضعة خطوط عابثة عربيدة ، ثم تخفيها وكأنها تقوم بعمل ليس من حقها ممارسته .. وذات مرة ، وقعت عينا الفنان «تولوز لوتريك» على أحد رسومها فصاح قائلا : «أنت فنانة موهوبة يا ماريا !» .

* * *

● **لقد** تقمص البهلوانة شيطان جديد ، شيطان الفن ، فاندفعت بكل طاقتها ترسم و «تبلبط» فى نافورة الألوان ، يدفعها تشجيع «ديجا» و «لوتريك» اللذين احتضناها وتبنياها فنيا ، فتحولت الفتاة من نموذج يؤجر بالساعة ، إلى صديقة وفنانة مبدعة ، تبحث عن مكان لاسمها إلى جوار أسمائهم التى تلمع تحت الأضواء !

وتكشف لنا احدى رسائل «ديجا» إليها عن مدى تشجيعه لها ، ومبلغ إعجابه برسومها التي لم يكن يمل من مشاهدتها ، إذ يقول :

«عزيزتى ماريا :

«كثيرا ما أتطلع إلى رسمك المعلق فى حجرة الطعام وأقول لنفسى : «كم هى موهوبة هذه الشيطانة ! » لماذا لم تعودى تعرضين على رسومك كعادتك ؟ أنا الآن أقترب من السابعة والستين من عمرى .. تعالى لزيارتى يا ماريا ومعك بعض الرسوم التى أحب مشاهدة مرونة خطوطها السميكة ..»

ومع الأيام احتلت سيرة «سوزان فالادون» ـ التى عاصرت «جوجان» و«فان جوخ» و«لوتريك» ـ مكانا مرموقا فى أكثر مراحل الفن خصوبة فى فرنسا .. وكانت ، وهى فى قمة انتصارها ، تعيش مأساة طفولتها ، وتحتفظ فى أعماقها بكثير من الذكريات المؤلمة .. ومع أن الفن والفنانين أصبحوا جزءا من حياتها ، إلا أنهم كانوا فى نظرها مخلوقات لعينة ، إذ تقول :

«كم ينفطر قلبى كلما فكرت فى المسكين فان جوخ ، وكيف كان يحضر إلى مرسم «لوتريك» ليعرض عليه آخر إنتاجه ، وهو ينظر إليه كما ينظر التلميذ إلى أستاذه .. ثم يأخذ لوحاته من غير أن يسمع منه كلمة تشجيع واحدة ، ويمضى حزينا تحت عبء صمته الثقيل ..»

ثم تسكت سوزان ، لتعود فتعقب بلهجة حانقة : «ماذا تنتظر من الفنانين ، أولاد الـ ....؟!»

* * *

● **وأنجبت** الفنانة الكبيرة «موريس أوتريللو» ، الذى كتب له قدره أن يكون

فنانا ، على عكس ما أرادت له أمه .. وكانت الشهرة التى تنتظر الشاب الموهوب .. تفوق شهرة الأم .. فقد عرف فى الأوساط الفنية أنه أحسن من رسم شوارع باريس وأزقتها .. ولكن هذا التفوق لم يثر غيرة الأم ، فقد كانت تقول : «كل واحد منا له نظرة خاصة ..» .

وسارت الأم وابنها فى خطين متوازيين دون أن يلتقيا .. وأسلمته لقدره ، يتخبط فى شوارع باريس ثملا مخمورا ، ليصبح أسطورة تحكيها الأجيال كلما وقعت العين على ركن من أركان العاصمة اللعوب .



«زهور عباد الشمس»

لوحة للفنان «فان جوخ»



«طاحونة الهواء»

لوحة للفنان «موريس أوتريللو»

ابن البهلوانة
الذى عشق حوارى باريس !

● **كانت** أزقة باريس أكثر ترفقا «بأوتريللو» من الناس الذين كانوا يتعقبونه فى كل مكان ، ليذيقوه مر العذاب .. كان يترنح فى شوارعها وطرقاتها ثملا مخمورا ، وقد أفقدته الخمر توازنه ، يلاحقه خوف من كل شىء .. من الرجال الذين يضربونه .. ومن النساء اللائى يسخرن منه .. ومن العالم الذى أثخنه بالجراح ..

وكان الرسم ملاذه الوحيد ، يلجأ إليه هربا من الناس ومن نفسه .. فكان ينزوى فى أحد منعطفات باريس ، يرسم معالمها بحب وشغف كبير ، وكأنه أمام فتاة حسناء يسجل مفاتنها بانبهار لذيذ ! .. ولكن شيئا ما كان يطارده ويفسد عليه متعته ، فيعمل على إغراق وعيه فى مستنقع من السائل الأحمر .. كان عاشقا لباريس ، لدروبها الضيقة ، لمبانيها التى تفوح منها الرطوبة ، لكباريها ، لكنائسها العتيقة . وكان السوقة وأطفال الحى المشاغبون لا يتركونه يهنأ بعشيقته التى وهبها قلبه ، فكانوا يتجمهرون من حوله ، ويفتنون فى مضايقته وإيذائه .. يقلبون لوحاته ، ويلقون بعلبة ألوانه فى النهر ، فيصرخ بأعلى صوته كالثور الذبيح : «ابعدوا عنى ، أنا لست مجنونا .. إننى مخمور فقط ! » .. ولكن الأشقياء كانوا يتمادون فى إيذائه وضربه ، فيهرب المسكين منهم ، ليسقط مغشيا عليه أمام محراب إحدى الكنائس ، فى حى (مونمارتر) !

* * *

● **كان** عذاب «أوتريللو» من إخوانه البشر فوق ما يتحمله البشر ،

وكان حى مونمارتر ـ بالنسبة إليه ـ الموقع الذى نصب فيه صليب آلامه ، ليستشهد عليه ، كل يوم ألف مرة ..

وتقول مدام «هيرزى» ـ إحدى العاملات بكلية (رولان) : «كان المسكين دائم الهرب ، مثل كلب طريد .. كل الناس يطاردونه ، يضربونه : أمه ، معارفه ، أولاد الحارة ، البوليس .. وكان إذا ما أراد أن يرد عنه اعتداءهم يزيد الأمور سوءا .. وعندما يفقده الشراب صوابه ، كان يذهب إلى ميدان (بيجال) ، وهناك يخلع معطفه ، ويبسط ذراعيه على امتدادهما كالمصلوب ، معترضا «الأوتوبيس» القادم ، فيضطر السائق إلى أن ينزل من مقعده لينحيه عن طريقه بـ «علقة» ساخنة ، ويتركه على الأرض فاقد النطق !

كان «موريس أوتوريللو» موهبة لازمتها اللعنة منذ الولادة .. كان مجهول الأب ، منبوذا من كل إنسان .. وكان ، برغم شدة ذكائه وقوة بنيانه ، قد استسلم منذ صباه للشيطان .. ولم تقو أمه الفنانة «سوزان فالادون» على تقويم اعوجاجه .. وعبثا حاولت أن تثنيه عن انحرافاته بإجباره على الرسم ، حين كانت تضع فى يده فرشاة ، وتقول له : «إما أن ترسم أو أحبسك فى زنزانة ..» !

* * *

● **لم تكن** الدروس القليلة التى تلقاها من أمه ، ولا توجيهات «كيزيت» ـ مصور مونمارتر ـ هى التى صنعت هذا الفنان .. لقد نشأ كالزهرة البرية ، وجذوة الفن كامنة بين ضلوعه .. كان يرسم بفطرته مثلما يغرد الطائر .. لا بسذاجة الطفوليين ، ولا بفوضوية المجانين ، ولكن بوعى ناضج يفتقر إليه كبار الدارسين .

ولم تستطع أمه ـ ذات المواهب «الرجولية» الفذة ـ أن تؤثر فى فنه . فقد كانت

ملتزمة بشخصيتها المتميزة ، بينما كان ميدانه الفضاء الفسيح ، ومرسمه الأرض والسماء ، ونماذجه البيوت والأكواخ ، والدروب والكنائس ، التى كان مشغوفا برسمها ، مدفوعا بإحساس دينى غامض ، يتدفق من لوحاته رغم افتقاره إلى التربية الدينية منذ طفولته ، فقد أبت أمه ـ التى تحمل أسوأ الذكريات عن الكهنة ورجال الدين ـ أن تنشئه نشأة دينية من أى نوع ، حتى أنها أصرت على ألا تعمده أو تنصره .. وعلى الرغم من ذلك ، كان «أوتريللو» يجد عزاء كبيرا فى رسم الكنائس ، إذ كانت تمثل فى نظره عالما من الخير والسلام .. وملاذا يهرب إليه عندما يهاجمه المشاغبون ..

وعندما تمادى الناس فى مضايقته ، اضطر إلى أن يتوقف عن الرسم فى العراء ، وأن يلجأ إلى النقل عن البطاقات البريدية «الكارت بوستال». وكان يمده بهذه البطاقات أحد رجال البوليس المتقاعدين ، كان يمتلك حانة صغيرة فى شارع (مونت سينى) ، وقد لجأ إليه «أوتريللو» عقب إحدى هجمات الغوغاء .. فآواه وعطف عليه. كان «أوتريللو» ينقل المناظر بيد ثابتة واثقة ، برغم سكره الشديد ـ بشكل يدعو إلى الدهشة ـ ويبيعها بفرنكات قلائل ليشترى بها زجاجة نبيذ يسكت بها آلامه .. وتسوء حالة الفنان الضال ـ تحت عبء أربعين عاما هدت خلالها الخمر كيانه ـ فاضطرت أمه الى إحكام الرقابة عليه ، وحبسه فى غرفة محكمة الإغلاق !

* * *

● وتلقى المصادفة بين يدى الفنان السجين بكتاب دينى كان يخص ابنة البواب ، فينكب على قراءته دفعة واحدة ، حتى يحفظه عن ظهر قلب .. وهنا تحدث

المعجزة .. فقد كانت كلمات الكتاب هى المفتاح السحرى الذى قاده إلى طريق التوبة والخلاص .. وأرشده إلى السلام الحقيقى ، وإلى الأمل والحب اللذين حرم منهما طول حياته ! لقد قرر أن يهجر الخمر إلى الأبد ..

تحول سلوكه ـ منذ تلك اللحظة ـ تحولا كاملا ، من العربدة إلى التصوف !.. وفجأة حل فى قلبه إيمان دينى عميق .. وأصبح الرسم والتعبد محور حياته ، فكان يكرس ست ساعات للعبادة والصلاة يوميا .. وكان يكن احتراما عميقا للعذراء مريم وللقديسة «جان دارك». وبلغ من إقباله على الدين أنه حفظ أسماء جميع القديسين عن ظهر قلب ، وكان إذا سافر من بلد إلى بلد ، أصر على الوقوف أمام كل قرية لزيارة كنيستها !

* * *

● **وهكذا** انتظمت حياة الفنان الشريد بعد زواجه من «لوسى فالورى» ، سنة ١٩٣٥ . فأقام فى «فيللا» بإحدى ضواحى (فيسينيه) وبنى فى حديقتها كنيسة صغيرة يؤدى فيها الصلاة فى مواعيدها ..

وتقول زوجته أن تطرفه الدينى كان يعذبه عذابا شديدا ، إذ كانت تنتابه نوبات من الكآبة بانتظام فى يومى الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع ـ وكان أثناءها يغلق على نفسه باب حجرته ، ويروح يقطعها ذهابا وجيئة وهو يصرخ بأعلى صوته ، تحت تأثير ألم نفسانى عنيف ، ويصلى بحرارة ، كأنه مسئول عن خطايا البشر ، وكأن عليه أن يتحمل وزر الناس جميعًا ، ويدفع ضريبة خطاياهم من عذابات قلبه !!!

وعكف «أوتريللو» على تصوير الكنائس ـ وكأنها قرابين يقدمها على مذبح

الرب ، ورسالة تطهير لمحو خطاياه ـ حتى مات سنة ١٩٥٥ بذات الرئة .. سعيدا بتوبته ، سعيدا بأحزانه .. التى تعكسها ، وسوف تعكسها ، لوحاته إلى الأبد !

مختار : نبى فن النحت الحديث

● **حقبة** من تاريخ مصر كانت مثل فجر عليل النسمات ، يسبق يوما ربيعيا صحو السماء ... فترة تكشفت فيها رواسب حضارات تعاقبت على الوادى ، وسرت عصاراتها فى وجدان الشعب ، لتظهر أعراضها فى القصيدة والمقال والأغنية والمسرحية والفن والقصة ، ولتوقظ جسما هامدا طال سباته ، فقام يتمطى وكأنه ينفض عن أوصاله طبقات من الصدأ كانت تعوقه عن الحركة والانطلاق ..

ويمتد دفء النهار ليشمل الوادى كله ، حضره وريفه ، مدنه وكفوره . وتنبت فى أعماق الريف براعم تتفتح لتقوم بدور قيادى فى تنوير الفكر ، وإيقاظ الوعى السياسى والاجتماعى والفنى بين جميع الطبقات ، ولتمهد الطريق لتحول شامل فى جميع مرافق الحياة ..

وفى غبش الفجر الخافت ، الذى يتسلل من وراء الأفق ليغمر قرية (نشا) ـ على مشارف (المنصورة) ـ يتردد على حافة ترعتها طفل نحيل ، يغترف من طينتها السمراء قطعة يملأ بها راحتيه ، ويقلبها بين أصابعه الهزيلة ، وهو سعيد بمرونتها وطواعيتها واستجابتها للمساته .. فهى تارة تأخذ هيئة السمكة أو الطائر أو الحصان ، وتارة أخرى شكل فارس أو بطل أسطورى من أبطال الملاحم التى يسمعها من شاعر القرية فى ليالى الصيف ..

* * *

● **وكأنما** تكشف التاريخ كله بين أنامل هذا الصبى .. أربعة آلاف من السنين أو يزيد .. ادخرتها الأجيال بين طيات الزمن ، ثم اختزلتها فى نواة حية غرستها

فى قلب القروى الصغير ، الذى شاء له قدره أن يكون الوريث البكر لتراث أجداده ، والرائد الأول للحركة الفنية الوليدة .

وبين أفراد عائلة تتنازع على ميراث الأب ، وفى كنف أم يضطرها المرض للسفر إلى القاهرة للعلاج ، يقف الصبى بين أقرانه فى القرية لا تسعه جنباتها ، ولا يملأ رئتيه هواؤها الذى يلامس ذؤابات الذرة وأعواد البرسيم ، فيحس بدافع خفى يدفعه للانطلاق بعيدا .. فى أجواء أكثر رحابة تتسع لأحلامه . ولا يتردد الصبى ـ عقب مشاجرة مع بعض الصبية ـ فى ترك القرية والهرب إلى القاهرة ، ليلحق بأمه التى كانت تقيم فى (حوش الشرقاوى) ، ويلتحق بمدرسة قريبة ، ليكمل ما بدأه فى الكتاب ، يرافقه كبرياؤه الفطرى واعتداده بريفيته ، وشخصيته القوية التى فرضت نفسها على زملائه ، الذين يحترمونه ويهابونه ويلقبونه بـ «العمدة» !

غير أن حنينا جارفا إلى السعادة ـ التى كانت تغمره وهو يصنع من طين الترعة فوارس أحلامه ـ كان يلاحقه ويؤرقه ، فيحس بظمأ قاتل للخلق والإبداع .

* * *

● **وفى الوقت** الذى بدأت فيه جامعة القاهرة ترسى قواعدها وتفتح أبوابها لطليعة المثقفين ، كانت مدرسة الفنون الجميلة بدرب الجماميز تستقبل ـ لأول مرة ـ طليعة من الشبان ذوى المواهب الفنية . وما كاد **محمود مختار** يسمع عن هذه المدرسة ، حتى كان أول المتقدمين إليها ، رغم اعتراض أمه التى نذرته للأزهر ، وأقاربه الذين أرادوا له مستقبلا يعيد إلى الأسرة جاهها العريق ..

وأذهلت عبقرية الشاب أساتذته الأجانب ، فقد انطلق كالبركان يخرج ما فى

كيانه ، وقد استيقظ فى أعماقه شغفه بالبطولات ، فراح يصنع التماثيل لطارق بن زياد ، وخولة بنت الأزور ، وخالد بن الوليد ، وغيرهم من أبطال التاريخ وزعماء الحركة الوطنية الوليدة .. ولم يكتف بهذا ، بل كان يشارك الجموع الثائرة ـ التى كانت تنطلق فى شوارع العاصمة مطالبة بدستور يكفل الحريات ـ ويلقى بالحكمدار الإنجليزى من فوق جواده ، عندما رآه يقتحم الجماهير المتظاهره يفرقهم بالقوة ، فيقبض عليه ويودع السجن . ولكنه يخرج بعد خمسة عشر يوما ، ليواصل كفاحه الوطنى بخطبه الملتهبة فى تجمعات الطلبة ، فيخشى ناظر المدرسة من استفحال خطره ويأمر بفصله .. ولكنه يعود بعد قليل ليواصل تفوقه النادر وكفاحه الوطنى ...

ويوفد مختار ـ قبل أن يتم دراسته ـ فى بعثة دراسية إلى باريس ، ليتفوق مرة ثانية على جميع المتقدمين للالتحاق بمدرسة الفنون الجميلة هناك ، من فرنسيين وأجانب .. وفى المهرجان السنوى الذى يقيمه طلبة الفنون كل عام ، جرده زملاؤه من ثيابه ، ووضعوه فوق محفة ، وعلى رأسه تاج من الورق كتب عليه «رمسيس الثانى» .. وطافوا به فى شوارع باريس وسط موكبهم الكبير ، وهم يهتفون باسم «الفرعون» القادم من مصر ..

* * *

●وتقوم الحرب العالمية (الأولى) .. فينقطع عنه مرتبه ، الذى كان يصله بانتظام .. ويدفعه الحرمان إلى البحث عن بقايا الطعام فى صناديق القمامة .. ثم يضطر إلى العمل فى أحد مصانع الذخيرة عشر ساعات كل ليلة .. ثم تعود الأيام

وتبتسم له ، فيعين مديرا لمتحف «جريفان» للتماثيل الشمعية .. وهو نصر أدبى لم يحصل عليه أجنبى !

ولا تلهى الحياة الباريسية ـ بكل مباهجها ـ «مختارا» عن الارتباط بأرضه ، بفكره وروحه .. إنه يرى التقدم الحضارى يحيط به من كل جانب ، فيحلم باليوم الذى يرى فيه بلاده تفيق من غفوتها ، لتقوم بدورها التاريخى فى ركب الحضارة .. وتلهمه هذه الأمنية فكرة تمثال **نهضة مصر** ، الذى يتحرك فيه «أبوالهول» لأول مرة ، ويرفع قوائمه الأمامية بعد أن ظل قابعا أبدا فى وضع ثابت لا يتغير .. ومصر الفلاحة الفارعة القوام ، ترفع عن وجهها النقاب لتستقبل الشمس مرفوعة الرأس ، منتصبة القامة ، تتطلع إلى المستقبل فى اعتداد .

وإذا كان تمثال «نهضة مصر» يعتبر نقطة انطلاق بالنسبة لمختار وفن النحت الوليد ، فهذا لأنه يمثل حلقة اتصال بين الماضى والحاضر ، فى أسلوب تمتزج فيه السمات الفرعونية بالملامح الحديثة ..

وفن مختار إلى جانب ذلك يعتبر علامة على الطريق ، فبالإضافة إلى قيمه الجمالية التى تنبثق من صميم البيئة ووجدان مصر الحديثة ، فهو دعوة سياسية يطلقها حجر الجرانيت للتحرر من الاستعمار الفكرى والثقافى ، انطلقت فى نفس الوقت الذى انطلقت فيه ثورة ١٩١٩ منادية بتحرير الأرض من الاحتلال الأجنبى .

وينطلق أزميل مختار ليبعث الحياة فى الحجر والصخر ، وليخرج من بين أنامله بنات الريف كالحوريات ، حاملات الجرار أو ذاهبات للحقل ، أو مقاومات رياح الخماسين ، أو متسربلات بملاءاتهن يطوين بين طياتها أسرارهن .. غير أن الألم يهاجم ذراعه فيعجز عن الإنتاج ..

ويحاول مبضع الجراح أن يخلصه من بعض آلامه ، غير أن بقايا من السم تسرى فى جسد الفنان العملاق ، فيفقد قدرته على المقاومة .. وفى ٢٧ مارس من سنة ١٩٣٤ يسلم الروح .. رضى النفس .. مثل نبى أدى رسالته على خير وجه !

ابتسامة تحكى تاريخ أمة !

● **بين** ثنايا عباءة الليل الدامس ، وتحت سماء داكنة تزمجر فيها الرياح ، وستار كثيف من الثلج المتساقط كالقطن المندوف .. تسلل «بيترهالس» هو وعائلته من ثغرة فى مخيمات الجيش الأسبانى ـ المرابط حول مدينة (هارلم) الهولندية فى حصار محكم دام ستة أشهر ـ لينجو بنفسه من أبشع مذبحة شهدتها المدينة ، بعد أن سقطت فى أيدى قوات الأسبان التى اندفعت كالذئاب المسعورة ، تنكل بالأهالى وتفتك بآلاف المواطنين الأبرياء .

كان هرب هذا المواطن عملا غير أخلاقى ، إذا قيس بالمقياس الوطنى .. فقد كان واجبه أن يبقى مع الرجال ، يجاهد معهم ويشاركهم فى دفاعهم الباسل عن المدينة التى يهددها العدو من خارج الأسوار .. ولكننا لو تصورنا ما كان يحدث لو قدر لهذا الرجل أن يقتل ـ كغيره ممن فتكت بهم جيوش الغزاة ـ لغفرنا للرجل زلته .. إذ لم يكن سيقدر له ـ إذ ذاك ـ أن ينجب فى مهجره الطفل «فرانس هالس» ، فتحرم البشرية من واحد من أكبر فنانيها الذين أضافوا لبنة هامة فى صرحها الشامخ . وأضفوا لمسة تفاؤل على الفن الهولندى ذى الأجواء القاتمة ، والألوان الداكنة .

* * *

● **ولد** «فرانس هالس» فى المهجر بمدينة «انتويرب» ـ أو (أنفرس) ـ البلجيكية ، سنة ١٥٨٠ ، أى بعد خمس سنوات من وصول الفنان «الجريكو» El Greco إلى أسبانيا ..



«عازف الناى» لوحة للفنان «فرانس هالس»

ولو أننا رجعنا قليلا إلى الوراء ، وراجعنا سجلات البوليس القديمة بمدينة «هارلم» ، وتصفحنا الحوادث التى وقعت فى ٢ فبراير سنة ١٦١٦ ، لوجدناها تحتوى على محضر يتضمن دعوة «فرانس هالس» أمام البوليس ، لسؤاله عن شكوى قدمت من زوجته تتهمه فيها بسوء معاملته إياها ، وقسوته البالغة !

ويقول المحضر أن المتهم المذكور تلق توبيخا شديدا على تصرفاته الشاذة ، وسمح له بالانصراف ، بعد أن سجل عليه تعهد بأن يصلح من سلوكه ، وأن يتحاشى مخالطة السكارى ومدمنى الخمر ..

ولقد كثرت الشائعات حول هذا الفنان الكبير ؛ بعضها يقول ان الرجل فاسد الخلق مدمن للخمر ، لا يفيق منها ، وبعضها يدافع عنه قائلا أن شخصا مدمنا للخمر - كما يدعون - لا يمكن أن تكون له مثل هذه اليد الثابتة واللمسات الجريئة الواثقة التى لازمت الفنان حتى بعد أن تجاوز الستين .

ويقول المدافعون عنه أنه لو كان سيء الخلق إلى هذه الدرجة ، لما عاش خمسين سنة فى وفاق مع زوجته الثانية - التى تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى - ولما أنجب منها مثل هذا العدد من الأولاد !

* * *

● ويبدو أن «فرانس هالس» لم يكن من طراز الرجال الذين يضربون زوجاتهم ، أو الذين يلتقطون كل صباح من على أرصفة الحانات .. غاية ما فى الأمر أنه كان رجلا بوهيمى المزاج ، محبا «للفرفشة» ومجالسة «أولاد الحظ» .. ولا مانع عنده من احتساء بضع كؤوس على سبيل المشاركة ، دون أن تزل قدمه إلى هاوية الإدمان !

إن بوهيميته تشهد بها لوحاته التى رسمها للغجر وللممثلين المتجولين .. ولكنها لم تكن بوهيمية العربيد المنفر ، وإلا لما تهافت عليه كبار شخصيات المدينة ووجهائها ، ولما انتخب ـ وهو فى الرابعة والستين ـ مديرا لنقابة «سان لوكاس» التى تحمى حقوق الفنانين والحرفيين .

غير أن الحقيقة التى يؤكدها الواقع هى أن الرجل كان فى حياته مسرفا غاية الإسراف ، حتى أنه اضطر الى الاستعانة بالتدريس لتنمية موارده ، بعد أن ساءت حالته المادية . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه عجز عن موازنة نفقاته ، فوقع عليه خبازه حجزا ، وفاء لما تراكم عليه من ديون .. ثم اضطره سوء حاله إلى التقدم بطلب إعانة من مجلس البلدية ، فمنحه المجلس ١٥٠ فلورين .. وبعد سنتين ، أعاد الكرة ثانية ، فقرر المجلس أن يصرف للفنان العجوز ـ الذى بلغ الثمانين ـ إعانة سنوية قدرها ٢٠٠ فلورين (جولدن) ..

* * *

● **لقد** أنتج «فرانس هالس» معظم أعماله الناضجة خلال حرب عنيدة بين أصغر دولة فى أوروبا وبين أقوى إمبراطورية فيها ؟ هولندا وأسبانيا !

وكان الأمل ـ فى بادىء الأمر ـ يبدو ضعيفا ، إذ كانت الحرب بين قوتين غير متكافئتين .. وانعكست سمات القلق والشك القاتم على لوحاته .. ولكن ، عندما لاحت فى الأفق بوادر النصر ، أشرقت لوحاته ببارقة من التفاؤل .. ويمكن ملاحظة هذا الفارق فى اللوحتين اللتين رسمها لضباط «سان جوريس» سنة ١٦١٦ وسنة ١٦٣٩ ، إذ تبدو ملامح الضباط فى الأولى قلقة ، فزعة ، يخيم عليها

شحوب اليأس والقنوط .. أما فى الثانية فنرى الابتسامات تلقى أضواءها على الشفاه ، وسمات الثقة المتفائلة تبدو فى تعبيرات الوجوه .

لقد عاشت ريشة الفنان ذلك الحدث الكبير ، وعبرت عن الفرحة الكبرى بلمسات دافئة متدفقة راقصة مشبعة بعصارة البهجة والزهو .. وتعتبر لوحة «الفارس الضاحك» عنوانا لخاتمة الانتصار .. وحدا فاصلا بين مرحلتى الاحتلال والحرية ، فى تاريخ أصغر دولة ، وأقوى إمبراطورية !

مع صانع الجيوكندة

● **عندما** انتهى «ليوناردو دافنشى» من وضع اللمسات الأخيرة فى لوحة «الجيوكونده» ، تناول القلم بيده اليسرى ، وكتب فى كراسة مذكراته هذه الأسطر :

«إن جميع الحواس لتتمنى أن تلتهم صاحبة هذه اللوحة التهاما .. وخاصة هذا الفم الرشيق الذى يشتهى كل جسد أن يكون له مثله» ! .. واستطرد الفنان فى مدح لوحته كما لم يمتدحها أحد من مقرظيه من قبل ولا من بعد !

ولا غرابة فى أن يفتتن الفنان بروعة لوحته ، التى استغرق فى صنعها أربع سنوات كاملة ، والتى كان يدعو الموسيقيين والمهرجين إلى مرسمه ليبعثوا البهجة فى نفس «موناليزا» أثناء جلوسها أمامه ، حتى تظل عالقة بشفتيها أشهر وأجمل ابتسامة عرفها التاريخ ..!!

وبالرغم من ظهور العباقرة من وقت لآخر ، فما من عبقرى استطاع أن يجمع من المواهب والملكات ما كان يتمتع به مصور «الجيوكونده» العظيم ، الذى عرفه الناس كأشهر مصورى عصر النهضة . فقد كان إلى جانب عبقريته الفذة فى التصوير والنحت ، عالما فى الهندسة العسكرية ، والعمارة الكنائسية ، والميكانيكا ، والتشريح ، وعلم المنظور ، والإستاتيكا والديناميكا ، والموسيقى والغناء ، وعلم استصلاح الأراضى ، والجيولوجيا ، والهيدروليكا ، وعلم الحرارة ، والسمعيات .. كما كان حجة فى علم الأخلاقيات والفلسفة واللغة اللاتينية .. وبالجملة ، كان موسوعة من العلوم والفنون ، تقمصت شخصا واحدا ، لم ولن يجود الزمان بمثله !

وكأنما أراد القدر أن يعوض الفنان الكبير عن وصمة ظلت تلاحقه طوال حياته وتحط من قدره أمام نفسه وأمام الناس .. إذ ولدته أمه نتيجة لزواج غير شرعى بأحد الموثقين ، واسمه «بييرو» ، يذكر عنه أنه تزوج أربع مرات ، وأنجب من الذكور عشرة ، ومن الإناث اثنتين .. وعبثا كافح «ليوناردو» ، لا ليتقاسم مع إخوته ثروة أبيه بعد موته ، بل ليعترف به كابن شرعى ، وأن يكون له نسب كبقية الناس ..

لقد وهبته السماء من المواهب ما يغنيه عن الأنساب والألقاب .. فقد كان وسيم الطلعة ، قوى البنية ، عذب الحديث ، حلو المعشر ، يأسر محدثيه بقوة الحجة وسحر اللهجة .. فكثر حساده ، واتهمه البعض بالشذوذ الجنسى وفساد الخلق .

وذات يوم ، وضع شخص مجهول رسالة بدون توقيع ، فى صندوق الشكاوى المعلق بجوار القصر العتيق ، يتهم فيها «ليوناردو» بالشذوذ ومصاحبة الفاسقين .. ولكن التحقيق معه برأه من هذه التهمة ، لتلاحقه تهمة أخرى أشد خطورة .. تهمة الإلحاد والكفر . فقد كان «ليوناردو» لا يخفى كراهيته للطقوس الكهنوتية المعقدة وسيطرة رجال الكنيسة ، وعداءه لدعاة السحر والتنجيم وتحضير الأرواح .. وإذا أضفنا إعجابه بالمبادىء التحررية ـ التى كان يدعو إليها «سافونا رولا» والتى عمت فلورنسا ـ أدركنا السبب فى إلصاق هذه التهمة به ، ولكنه استطاع أن ينفيها عنه بالعديد من اللوحات الدينية التى أبدعتها ريشته ، والتى تعبر عن إيمانه وتدينه العميق .

* * *

انكب الفنان العالم على العلم يكشف غوامضه ، وعلى المشروعات يخطط لها ، فكان أول من فكر فى توصيل نهر «الأرنو» بقناة تخرج من مدينة (بيزا) ، وإقامة السدود وتحويل مجرى النهر لاستغلاله فى أستصلاح الأراضى .. وكانت غرفته مليئة بالسحالى ، والحشرات ، والصراصير ، والأفاعى ، والفراشات ، والكثير من الأدوات والأجهزة ، يجرى عليها بحوثه .. وكان من أوائل من وضعوا أسس علم التشريح الفنى ، فكان يتردد على مستشفى «فيلارينى» القديم بميلانو ، يشرح جثث الموتى ، غير مبال ببشاعة منظرها ولا عفونة رائحتها !

وكان محبا للعزلة ، يقضى ساعات فى التفكير والتأمل ، ويقول : «إن الخلوة أم الحرية ، فاذا ما كنت وحيدا فأنت ملك لنفسك ، وإذا كنت مع رفيق واحد فلن تملك إلا نصفك» ! .. وكان ينصح بالاستماع إلى النقد حتى من الخصوم ، ويقول : «ليكن اهتمامك بما يقوله خصومك أكثر من اهتمامك بما يقوله أصدقاؤك .. لأن الحقد أعظم أثرا من الحب ! !»

وكان يقضى أياما كاملة فى الخلاء ، يفحص الطبيعة وظواهرها ، ويتسلق الجبال الشاهقة معرضا حياته للخطر ، ويرقب الطيور أثناء تحليقها ، ويدرس حركاتها .. كما وضع تصميما لجناحين يثبتان حول الوسط ، ليستطيع الإنسان بواسطتهما التحليق فى الفضاء كالطائر !

إن شخصا على هذه الدرجة من العلم والفن ، كان خليقا أن يتدفق المال تحت قدميه أنهارا .. ولكنه كان متقشفا بطبعه ، يزهد المال ويحتقره ، بل كان كثيرا ما يفتقر إليه فيلجأ إلى أقاربه أو تلامذته ليقرضوه بضعة دراهم لينفق منها على نفسه وأبحاثه .. ولقد بلغ من زهده فى المال أن قبل كمية من الأخشاب كأجر له نظير قيامه بنقش ساعة كبيرة فى دير القديس «دوناتو» . وكان يقول عن المال :

«كل ماتنفقه على نفسك ملك لك ، وكل ما تجمعه ولا ينفعك فى حياتك ملك لغيرك ، على الرغم منك» !

* * *

وعندما وجد الفنان أن الفن لا يفى باحتياجاته المادية ، كان يضطر إلى عرض خبرته العسكرية على الأمراء ، ويبتكر لهم طرقا جديدة فى التكتيك الحربى للتغلب على خصومهم ، مثل إقامة الحصون والقناطر المتحركة ، واستعمال الدخان الكثيف للتمويه ، وإثارة الرعب فى قلوب الأعداء ، وتصميم العربات المصفحة ومدافع الهاون .. وغير ذلك من فنون الحرب .

وكان «ليوناردو» برغم ذلك رقيق القلب يعاف أكل اللحوم ، ويتعذب عندما يرى الطيور حبيسة أقفاصها ، فيعمد إلى إطلاقها بعد أن يدفع ثمنها لأصحابها !.. ولا ريب فى أن فكر الفنان المشتت بين فنه وأبحاثه ومخترعاته ، وسعيه الدائم لتحقيق الكمال ، كان سببا فى أنه لم يكن يتم عملا يبدؤه .. وكان ذلك يسبب له كثيرا من الحرج والأزمات ، وخاصة مع حكام فلورنسا وميلانو الذين كانوا يتنافسون للحصول على شىء من إبداعه .. ولقد كانت عبقريته سببا فى أنه لم يذق طعم الراحة والاستقرار فى حياته ، فظل هائما على وجهه بين ميلانو ، والبندقية ، وفلورنسا ، ولومبارديا ، وروما .. وأخيرا رحل إلى فرنسا ، بعد أن عرض عليه ملكها فرانسوا الأول أن يرافقه ، وخصص له قصرا لإقامته هو وتلاميذه ، ومعاشا سنويا قدره ٣٥ ٠٠٠ فرنك .

وظل «ليوناردو» يعمل إلى أن أصيبت يده اليمنى بالشلل .. ثم مات ، ودفن فى مقبرة مؤقتة فى ٣ مايو سنة ١٥١٩ .. حتى نقل جثمانه إلى دير «سان فيونتينو» فى ١٠ أغسطس سنة ١٥١٩

العندليب المهاجر

● **وقف** الصبى «جبران» فوق سطح الباخرة ينظر إلى جموع المودعين وهم يلوحون بمناديلهم ويذرفون الدموع ، وهو لا يدرى أنه يودع ـ إلى الأبد ـ الجبل الذى احتضن طفولته وصباه ..

كانت كل معلوماته عن هذا الرحيل المفاجىء ، أن هناك فى القارة البعيدة ـ التى يتحول فيها المعدمون إلى أصحاب ملايين ـ رزقًا كبيرًا ينتظر الأسرة التى عضها الفقر بأنيابه ...

وذاب الصبى فى خضم هذا الفوج الذى يدفعه الأمل نحو غد يلمع فى أفقه بريق الذهب !

واستقرت الأسرة المهاجرة فى مدينة (بوسطن) الأمريكية ، وانغمست فى الصراع المحموم من أجل البقاء ، فاشتغل الأخ الأكبر بالتجارة ، ولكن الكساد كان يطارده ، فاضطرت شقيقتاه إلى الاستعانة على الحياة بالتطريز ..

وكانت أحلام الفتى تختلف عن أحلام أخواته الكبار .. كان كوكبه يدور فى فلك آخر غير فلكهم ، فلم تتمكن عجلة الحياة المادية من أن تسحقه أثناء دورانها المسعور ، إذ حمل معه إلى المهجر قلب الفنان ، وعقل المفكر ، وحكمة الفيلسوف .. ولم يخلع عنه فى مقامه الجديد حسه المرهف الذى صقلته شعاب الجبل ، وأظلته أغصان أرز لبنان ، وروته عيون الماء التى تفيض بالشفافية والصفاء .

● **ودفعه** إرهاف حسه إلى النضج المبكر ، فعرف الحب ولما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره .. وفتح قلبه على مصراعيه لأول امرأة دخلت حياته .. وكان تعطشه للحب كبيرًا مثل قلبه ، جارفًا مثل عواطفه وأحلامه ، فارتمى بكل كيانه فى لجة المغامرة دون أن يحس بالرى ، وألقى به تهوره المراهق فى مخادع الزوجات ، ليطفىء ظمأه من كؤوس الآخرين ..

ويستيقظ الفنان التشكيلى فى أعماق الفتى القادم من لبنان ، يلح عليه أن يذهب إلى باريس ليدرس الرسم والتصوير .. فيترك كعبة الدولار إلى كعبة الفن ، ثم يعود بعد قليل ، ليرى أفراد أسرته يتساقطون واحدًا بعد الآخر ، فتموت أخته صريعة مرض السل ، ويلحق بها أخوه بنفس الداء ، ثم تتبعهما أمه بعد ذلك بوقت قصير ..

ويتحرك فى داخله فنان آخر يجسد الإحساس فى الكلمة ، ويلون المشاعر بالإيقاع ، ويزركشه بالقافية .. ويكتشف الفتى انشطار مواهبه إلى شطرين .. شطر يحتله الفنان الرسام ، وشطر يحتله الفنان الشاعر . ويستسلم لهذا التمزق اللذيذ دون مقاومة .. ويمضى متنقلا بين الرسم والشعر ، مثلما كان يتنقل بين أذرع الحسناوات !

* * *

● **ويتعرف** الفنان الشاعر على « مارى هاسكل » ـ صاحبة إحدى المدارس فى « بوسطن » ـ فيقع فى غرامها ، وتأسر قلبه مواهبها الروحية والعقلية .. ولكن نداء خفيا كان يلح عليه قائلاً : « ليست هذه المرأة هى التى أشتهى » ! .. فترك العش الهادىء وراح ينشد المتعة فى مخدع « ميشيليه » ، المعلمة فى نفس المدرسة ، والتى أحبها بعنف لم يكن يقل عن حبه لمارى هاسكل .. !

ويعانى الشاب من تمزق آخر بين روحه وجسده ، وبين عواطفه ورغباته . ويرى أن أحدهما لا يغنى عن الآخر .

ويجد الشاب فى «مارى هاسكل» راعية روحية لمواهبه ، وصديقة تتفانى فى حبه ، وتمهد له طريق المجد .. فهى التى تشجعه على كتابة الشعر بالإنجليزية إلى جانب العربية ، وهى التى ترسله ـ مرة أخرى ـ إلى باريس ، ليكمل دراسته للفن على نفقتها الخاصة . فما أن يستقر فى باريس ، حتى تلحق به «ميشيليه» ، وتبقى إلى جواره ، آملة فى أن تنتهى علاقتهما بالزواج .. ثم تتبين أنه من فصيلة الفراشات ، يؤثر التنقل من زهرة إلى زهرة ، حيث يتوافر الشهد والرحيق .

* * *

● **وذهب** الشاب إلى المثال الفرنسى الكبير «أوجست رودان» ليتتلمذ على يديه ، واستطاع «رودان» أن ينفذ إلى أعماقه ، وأن يكتشف الخيط الرفيع الذى يربطه بالفنان والشاعر والكاتب الإنجليزى «وليم بليك» فيرشده إليه ، وينصحه بتعقب خطاه ... فيصبح «وليم بليك» ـ منذ ذلك اليوم ـ مثله الأعلى فيما يؤلف من شعر أو يصور من لوحات ..

ويستيقظ العرفان بالجميل فى ضمير الفنان العربى ، فيذهب إلى راعيته يعرض عليها الزواج ، ولكنها تقول له إنها تفضل صداقة دائمة على زواج مهتز !

وتتقاذف الفنان طبيعته القلقة المترددة ، ومزاجه الذى يتأرجح بين الأضداد .. ويتذبذب فنه وشعره بين الكفر والإيمان ، والتمرد والرضا ، فيقفز به من حضيض الإلحاد إلى قمة التصوف ، ومن دروب الكراهية إلى رحاب الحب الكبير ، للبشرية جمعاء !

غير أن التناقض فى شخصية الفنان كان بمثابة القنطرة التى التقت فوقها روح الشرق والغرب فى فنه ، إذ استطاع ـ بنشأته الشرقية وبتقاليده العربية الأصيلة ـ أن يحدث التوازن مع ثقافته الغربية وأصالته الشرقية .

اسمه «جبران خليل جبران» (١٨٨٣ ـ ١٩٣١) .. أحد العباقرة الذين أنجبهم الشرق ، وإن يكن تألق فى الغرب .. وظل طول حياته وفيًا لشرقيته وعروبته ، إلى أن مات تاركًا وراءه عدة كتب ودواوين باللغتين العربية والإنجليزية ، كان هو الذى يصورها بريشته ، فيجعل من القصيدة لوحة ، ومن اللوحة قطعة من الشعر !

ألبرخت دورر

● **منذ** خمسمائة عام وعشرة ، كان مولد الفنان الألمانى الكبير «ألبرخت دورر» ، باعث فن التصوير الألمانى ، وواحد من أعظم فنانى عصره ، الذين أسهموا بفنهم وفكرهم فى تغيير صورة العالم ..

لمع اسم «ألبرخت دورر» فى وقت كانت فيه إيطاليا تحتكر الفن بلا منافس ، باعتبارها كعبة الفن فى العالم المتمدين ، وقبلة الراغبين فى تعلم العلم والفن والثقافة فى ذلك العصر .. فكان أى اسم يتألق خارج الحدود الإيطالية أو الأراضى المنخفضة ـ التى كان لها دور متقدم فى الفن ـ يعتبر ظاهرة غير طبيعية .. لذلك كان المؤرخ الكبير «فاسارى» نفسه ، يعتقد أن «دورر» من أصل فلمنكى .. فى حين أن أباه كان هنجاريا هاجر إلى نورمبرج ، وهناك أنجب «دورر» ، فى ٢١ مايو سنة ١٤٧١ !

وربما كان للبيئة التى نشأ فيها «دورر» الصغير ، أثر فى إيقاظ مواهبه الفنية ، إذ تفتحت عيناه على أعمال الصياغة الدقيقة التى برع فيها أبوه وجده . وكذلك وضح فى طفولته حبه العميق لفن الحفر ، الذى اكتسبه عن والده فى العماد «أنتون كوبرجر» ، الذى كان خبيرا فى شؤون الطباعة ، وتاجرا للكتب ..

* * *

وكان المفروض أن يسلك الولد نفس الطريق الذى سلكه أبوه وجده من قبل ، ولكنه لم يظهر أى استعداد لاحتراف الصياغة .. مما حدا بأبيه أن يرسله ـ وهو فى الخامسة عشرة من عمره ـ إلى «ميخائيل وولجيمات» ، أحد مشاهير

الفنانين فى المدينة ، حيث تتلمذ على يديه .. وعندما لم يجد الأستاذ ما يضيفه إلى معلومات الشاب ـ بعد ثلاث سنين قضاها معه ـ أرسله أبوه فى جولة إلى جنوب ألمانيا وفينيسيا .. وهناك التقى بكبار الفنانين ، وخاصة الفنان الكبير «جيوفانى بلليني» ، الذى كان الشاب يعتبره أحسن فنانى إيطاليا وأكثرهم نزاهة ، وأطيبهم قلبا .. وكان «بلليني» بدوره منبهرا بأعمال «دورر» ، حتى أنه طلب منه أن يبيعه إحدى لوحاته بأى ثمن !.. كما طلب إليه ـ ذات مرة ـ أن يهديه إحدى فراجينه التى يصور بها شعر الرأس واللحية فى لوحاته بشكل يثير الدهشة ، فعرض عليه «دورر» عددا من الفراجين العادية ، وطلب إليه أن يختار منها ما يشاء ، فقال «بلليني» ! «ولكنى أقصد تلك التى ترسم بها الشعر» !.. فابتسم «دورر» ، وقال : «إننى لا أستعمل سوى هذه الفراجين !»

فى هذه الرحلة ، رسم «دورر» بعض المناظر الطبيعية فى طريقه عبر جبال الألب ، فكان أول مصور أوربى يحرر المنظر الطبيعى من التبعية ، بعد أن كان المنظر الطبيعى يقوم بدور «الكومبارس» داخل التكوينات العامة ، وصور الشخصيات .

* * *

● **كانت** هذه الرحلة سببا فى تعزيز شهرة الفنان خارج حدود بلاده .. فازداد الإقبال على لوحاته ، بعد أن سبقته شهرته إلى كل بلد كان ينزل فيه .. حتى أن بلدتى (فينيسيا) و (أنتويرب) عرضتا عليه التجنس بجنسيتيهما .. ولكنه رفض مفضلاً أن يظل وفيًا لمسقط رأسه !

وكان من الممكن أن تدير هذه الشهرة رأس الفنان الشاب ، وهو يقف على أبواب المجد ، فيركبه الغرور .. ولكنه عاد إلى بلده وهو أكثر تواضعا ، ليتزوج



صورة شخصية للفنان فى شبابه

لوحة للفنان «ألبرخت دورر»

من «آنج فرى» ، وليلبى طلبات كبار الشخصيات الذين تهافتوا عليه ليصورهم ، بأسلوبه المتميز بالوقار والأستاذية فى الرسم والتلوين ..

غير أن طبيعة «دورر» كانت تدفعه إلى التعاطف مع طبقات الشعب الكادحة ، وخاصة الفلاحين الذين كان يشعر نحوهم بعطف شديد ، فامتلأت رسومه بصورهم وهم يعملون فى الحقل ، أو وهم فى الأسواق ، أو فى حفلات سمرهم .. وكان يجد فى سلسلة المستنسخات الخشبية أو النحاسية التى استوحاها من سفر الرؤيا ـ والتى نشرها سنة ١٤٩٨ ـ متنفسا لإظهار شعوره والتعبير عن سخطه على صناع الحروب والانتهازيين ، الذين يثرون على أكتاف الشعب ..

ولقد ذاع أمر هذه المستنسخات فى جميع أرجاء أوربا ، لسهولة الحصول عليها ، وكانت سببا فى ذيوع صيته كحفار أكثر منه كمصور .. فأعقبها بمجموعات أخرى تمثل آلام المسيح وحياة العذراء .. ولكن البعض فسر هذه اللوحات بأنها هجوم على البابوية ، ونقد مستتر لرجال الكنيسة !

* * *

● **وازدادت** مسئوليات الفنان بعد وفاة أبيه واضطراره لإعالة والدته وأخيه الصغير «هانس» ، فاضطر إلى الإقلال من الصور الزيتية والاعتماد على المستنسخات التى كانت تدر عليه ربحا لا بأس به ..

وفى سنة ١٥١٨ ، دعاه الإمبراطور «مكسمليان الأول» للذهاب إلى (أوجسبرج) لرسم صورة شخصية له . وفى هذه الأثناء ، كان «مارتن لوثر» قد أعلن دستور التحول العقائدى ، عندما علق الـ ٩٥ بندا على بوابة كنيسة ڤيتنبرج Wittenberg . يندد فيها بطبيعة صكوك الغفران البابوية .. وكان

«دورر» فى أعماقه يتعاطف مع «اللوثرية» ، ولكن مالقيه من رعاية الإمبراطور الكاثوليكى جعل الفنان المتحرر فى موقف حرج ، فلم يستطع أن يتخذ موقفا حاسما وصريحا بالنسبة لهذه الدعوة ..

وفى أخريات أيام حياته ، رسم «دورر» لوحته الشهيرة «الحواريون الأربعة» ، التى كانت لها أهمية خاصة ، ليس باعتبارها آخر أعماله ، ولكن لأنها تشير إلى موقفه من هذا التحول .. ولقد أهدى هذه اللوحة إلى بلدية (نورمبرج) ، مشفوعة بخطاب غاية فى التواضع ..

وفى سنة ١٥٢٨ ، مات الفنان الكبير ، الذى استطاع أن يحول الأنظار من إيطاليا إلى شواطىء الراين ، وأن يحطم الاحتكار الفنى الذى كان مقصورا على شبه الجزيرة التى تخترق مياه البحر الأبيض . متزعمة الفنون طوال عصر النهضة وما بعدها ! !

فنـــان ، وثائر
وعمـدة ، وصيـدلى

● **عندما** علق «مارتن لوثر» ـ على بوابة كنيسة فيتنبرج ـ بنوده الـ ٩٥ ، التى أراد بها القيام بحركة إصلاح شامل للعقيدة المسيحية ، بعد أن كان يتوارثها «باباوات» روما ـ إذ كان «البابا» هو الإمبراطور الحقيقى للإمبراطورية الرومانية ـ كان ذلك إيذانا ببزوغ فجر يوم جديد لصحوة الشعب الألمانى ، وانتقالا به من ظلام القرون الوسطى وبربرية عصر الإقطاع إلى عصر نهضة ، ينفتح على مختلف الاكتشافات العلمية والإنسانية والفنية ...

ولقد صاحب هذا التحول الدينى الخطير ثورة أخرى ، قام بها الفلاحون الذين يمثلون السواد الأعظم من الشعب ، مطالبين بحقوقهم الآدمية المشروعة ... وكان ذلك بمثابة المحراث الذى قلب تربة الأرض رأسا على عقب ، وأكسبها خصوبتها ، فأنبتت العديد من المفكرين والفلاسفة والفنانين ، الذين أناروا الطريق لشعب متعطش إلى الحرية والمعرفة ..

ولقد جلبت الثورة البرجوازية معها انهيار عهد الإقطاع ، وأعلنت بشجاعة الانفصال التام عن سلطة البابوية الكاثوليكية فى روما .. وفى هذه البيئة التى تفجرت بالحياة فجأة ، ظهر اثنان من أعظم فنانى ألمانيا ، ليفتتحا عصر النهضة الألمانى .. وهما الفنانان : «ألبرخت دورر» و «لوكاس كارناخ» ، الذى كان يصغره بسنة واحدة (١٤٧٢ ـ ١٥٥٣) .

● **كان** والد «لوكاس كارناخ» ـ وهو مصور فنان أيضا ـ يتمنى أن يصبح ابنه فنانا عظيما ، فسماه «لوكاس» تيمنا بالقديس «لوقا» راعى الفنانين ، الذى يقال أنه أول من رسم العائلة المقدسة فى التاريخ .

وكبر «لوكاس» ولمع نجمه ، وأصبحت له شعبية لا تقل عن شعبية «دورر» ، وكفاءة أهلته لكى يختاره أمير سكسونيا مصورا للبلاط ، سنة ١٥٠٥ . ولم يشغله انهماكه فى المشروعات ـ التى كان يكلف بها ـ عن القضية الكبرى التى كانت تشغل بال مواطنيه ، ولم يمنعه عن مسايرة الركب الثورى .. وظل طوال حياته مشاركا الشعب فى كفاحه ، مجندا ريشته للتعبير عن آرائه الثورية والإصلاحية .. وكانت صداقته الوثيقة «بمارتن لوثر» ـ قائد حركة الإصلاح الدينى ـ من الأسباب التى جعلته أقرب الناس إلى قلب الثورة ونبضها .. ولذا كانت الصور الشخصية التى رسمها «لمارتن لوثر» ولوالديه من أهم المراجع للتعرف على شخصية هذا المصلح العظيم .

وتعتبر أعمال «كارناخ» ـ سواء فى المجال الرسمى أو الشعبى ـ نقطة أساسية لمتابعة تطور الحياة الفنية والاجتماعية للشعب الألمانى ، وخاصة اللوحات التى قام بتنفيذها بتكليف من البلاط ، إذ تعتبر وثائق أمينة ، ومراجع تاريخية غاية فى الأهمية للتعرف على شكل الحياة فى مختلف القطاعات ..

* * *

ولقد كانت فطرة «كارناخ» منجذبة إلى الطبيعة ، والناس ، والأشياء التى تحيط به .. كانت علاقته بهذه الأشياء جميعا علاقة حميمة ، جعلت أعماله تتسم بواقعية تتبدى فى احترامه الزائد لدقائق الأشياء وخصائصها الظاهرة ..

وكان ينقل هذا الاحترام إلى سمات الناس ، عندما يرسم صورهم الشخصية التى برع فيها ، وإلى سمات المجتمع الذى كان ينظر إليه ، لا من وراء ستار الخيال الحالم ، بل من خلال مجهر الحقيقة وضوء الواقع .. ولقد دفعته واقعيته إلى الخوض

فى ترجمة القصص الإنجيلى بالرسوم المطبوعة على الخشب ، وترويجها على نطاق واسع ، رغبة منه فى الإعراب عن التناقضات السائدة فى زمانه ، الأمر الذى لم يجرؤ عليه فنان آخر من قبل ..

وتتجلى براعة «كارناخ» فى تصوير الشخصيات بكافة انفعالاتها العاطفية ، وكذلك «الميثولوجيا» اليونانية ، والموضوعات الدينية التى كان يحرص على تجنيبها التكلف المفتعل ، وعلى إلباسها ثوب الواقع .. فكان عندما يقدم على تصوير العائلة المقدسة ، يستعين بأفراد من الطبقة البرجوازية كنماذج لشخصيات موضوعه . فكانت العذراء مريم تبدو كامرأة عادية من لحم ودم ، وليست فى هيكل طينى يظهرها كأنها من طبيعة أخرى غير طبيعة البشر ..

ولقد كان «كارناخ» أول من أدخل الجسم العارى فى التصوير الألمانى .. ولم يكن - عندما يصور المرأة عارية - ينقل النسب التشريحية والعضوية الحقيقية ، بل كان يضع فيها نسبا جديدة مستلهمة من مقاييس نموذجية تتصل بالجمال الأنثوى الخالص ، البعيد عن الإثارة .. حتى أن «حواء» ، و «فينوس» فقدتا تلك المسحة الملائكية التى كانتا تبدوان عليها فى لوحات الكلاسيكيين الإيطاليين ..

واستطاع الفنان كذلك أن يسخر مهارته - فى الحفر على الخشب - فى طباعة الموضوعات التى يندد فيها بالأوضاع الفاسدة . وكانت مبالغته فى تمثيل فظاعة مشهد الصلب والاستشهاد ، عاملا مؤثرا غاية التأثير للتنويه بما يلاقيه المصلحون المتحررون وأصحاب الدعوات التى ترمى إلى تنوير الأذهان وتحرير الفكر من اضطهاد وتعذيب على أيدى الحكام الذين يبنون مجدهم على أجسام الآخرين ..

كانت أعماله صرخات احتجاج ، وتأييدا لصوت الإصلاح ، الذى انطلق صداه فى جميع مرافق الحياة الاجتماعية والدينية والعلمية والفنية .. وكان له من المؤهلات الإدارية والسياسية ما رشحه لتولى منصب عمدة مدينة «فيتنبرج»

عدة مرات .. دون أن يفقده منصبه كعمدة ـ ولا منصبه كمصور للبلاط ـ شعبيته وتقدير الجماهير له .

* * *

● ولم يتوقف طموحه عند هذا الحد ، إذ كان عنده فائض من النشاط مكنه من امتلاك مشرب للنبيذ ، وصيدلية ، ومطبعة ، ومكتبة ، ومرسم كبير ضم عددا من الفنانين المساعدين ، علاوة على مساعدة ابنه «كارناخ الصغير» ، الذى كان مصورا أيضا .. وذلك حتى يتمكن من ملاحقة الأعمال الكثيرة التى كان يكلف بها .

وكان يرسم بجوار الحروف الأولى من اسمه شعارا خاصا ، على هيئة ثعبان مجنح يتجه جناحاه إلى أعلى .. ولما مات ولده البكر ، أصبح ينكس جناحى الثعبان حدادا على فقده .

إن العالم ـ وهو يقف على حافة تغيرات غاية فى الخطورة ـ يحيى ذكرى هذا الفنان الذى لم يقف من الأحداث موقفا سلبيا ، بل جند ريشته دفاعا عن قضية الإنسان ، إلى أن مات سنة ١٥٥٣ .

اليهودى التائه !

● **على** عتبة الكوخ العتيق فى قرية «سميلوفتش» البولندية ، جلس الطفل الصغير شاردا يتأمل السحب البيضاء ، وهى تتلاحم وتتباعد ، كأنها ملائكة السماء تتسابق فوق ساحتها الزرقاء .. وعلى البعد جلس أبوه الخياط ـ أمام دكانه ـ يحوك ملابس زبائنه فى صمت ، بينما انهمكت أمه العجوز كعادتها فى إعداد الطعام لإخوته العشرة ، وهى حريصة كل الحرص على ألا ينقضى يوم الجمعة إلا وتكون قد انتهت من تجهيز مؤونة الأسبوع من الخبز الأسمر ، استعدادا ليوم السبت الذى يحرم فيه أى نوع من العمل ..

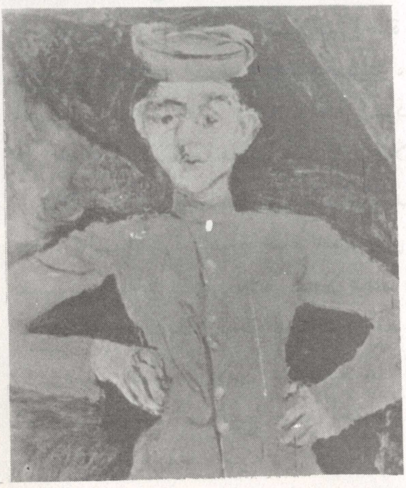
القرية رمادية كالقدم ، تسير فيها الحياة رتيبة الإيقاع ، ثقيلة الوطء . وكل ما يذكره «سوتين» الصغير من أيام طفولته ، هو تلك الجهامة القاتمة التى كانت تخيم على الكوخ ـ القابع فى قلب الحى اليهودى ـ والجو الخانق الذى كان يزحف على خياله الخصب ، فيهرب منه إلى أحلام طفولته الغنية بالرؤى والصور ..

ولا يذكر الفتى أنه أحس بالشبع مرة واحدة فى حياته ! .. لا فى طفولته البائسة ـ عندما كانت الأسرة الكبيرة تجتمع حول طبق البطاطس المسلوقة والرنجة المقددة ، يغمسون بها الخبز الأسمر الغليظ ـ ولا عندما أصاب شيئا من النجاح فى آخر أيامه بباريس ، حين كانت القرحة اللعينة تمزق أمعاءه وتدمى أحشاءه بلا رحمة !

وصمم الصبى ذو الاثنى عشر ربيعا على أن يهرب من الفقر ومن ضغط أبيه ، الذى كان يريده أن يصبح صانع أحذية ، أو صاحب مهنة يستطيع أن يعول بها نفسه .. ويساعد أسرته .



«سمراء من جزر هاييتي»
لوحة للفنان «جوجان»



«الفتى ذو الرداء الأحمر»
للفنان «سوتين»

● **وذات** صباح ، وجد نفسه يمشى فى الطريق الموصل إلى (مينسك) ، التى يفصلها عن قريته عشرون من الكيلومترات . ولكنه وجد أن هذه المدينة الصغيرة لا تتسع لطموحه ، فأبحر إلى «فيلنا» ، بعد أن قطع علاقته بعائلته تماما .. وهناك التحق بمدرسة الفنون الجميلة ، إشباعا لرغبة كانت تلح عليه منذ طفولته .. وكان يدفع نفقات دراسته مما يحصل عليه من عمل عند أحد المصورين الفوتوغرافيين .

وتحركت شياطين الرحيل فى أعماق الفتى من جديد ، فجمع متاعه ورحل ـ إلى باريس هذه المرة ـ يحمل فوق كتفيه أعوامه الستة عشر ، وأحلاما لا تقدر بالسنين ولا بالأعوام !

وابتلعت العاصمة بكل صخبها الوافد الجديد .. وفى حى (مونمارتر) التقى بوافد يهودى آخر قادم من إيطاليا اسمه «موديليانى» ، جمعتهما ملة واحدة ، وأمل واحد .. كلاهما جاء من بعيد ليقف فوق قمة البرج الحديدى الشاهق «إيفل» لكى يراه الناس ..

وفى مرسم «موديليانى» ، الذى بدأت أحواله المادية تتحسن بعض الشىء بفضل متعهده وصديقه تاجر اللوحات «سوبرفسكى» .. حاول موديليانى باستمرار إقناع صديقه التاجر بأن يولى صاحبه الوافد الجديد شيئا من الرعاية .. حتى أن آخر كلمة قالها له ، وهو على فراش الموت : «لا تقلق على فراقى . فإنى أضع فى رعايتك موهبة نادرة» ! ..

ومع ذلك ، لم يقتنع «سوبرفسكى» بمواهب «سوتين» ، الذى كان يذهب مع رفقائه الجياع إلى «شاجال» المصور اليهودى ، يطلبون منه أن يقرضهم بعض النقود .. فكان يعطيهم بضعة فرنكات بشرط ألا يعيدوها إليه ثانية .. وكانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى يضمن بها عدم عودتهم لمطالبته بمزيد من النقود !

* * *

● **وذات** ليلة ، دخل التاجر «سوبرفسكى» مقهى (الروتوند) يرافقه كلبه الصغير ، فتقدم إليه «سوتين» قائلا : «إننى جوعان ، وفى حاجة إلى بضعة فرنكات أعطيك فى مقابلها لوحة من لوحاتى ..» !

وبكل غطرسة ، أخرج الرجل من جيبه حفنة من الفرنكات ، راح يقلبها فى يده ، قائلا : «لن أعطيك شيئا» .. ونادى على خادم المقهى ، وطلب «سندوتش» محشوا بالسجق الساخن لكلبه الصغير !

وأمام إلحاح الأصدقاء ، اضطر التاجر العنيد أن يعطى «سوتين» مائتين من الفرنكات ، نظير سفره إلى مقاطعة «ميدى» لرسم بعض اللوحات . ولما عاد باللوحات المطلوبة ، وجدها التاجر «فظيعة» ، فألقى بها بإهمال على أحد الأرفف ، وهو يتحسر على نقوده التى ألقى بها فى صندوق القمامة !!

وساقت الأقدار جامع التحف الأمريكى «دكتور بارن» إلى متجر «سوبرفسكى» ، باحثا عن أسماء جديدة يضيفها إلى مجموعته .. فعرض عليه أعمالاً لديران ، وأوتريللو ، وكسلنج .. ولكنه نحاها جانبا عندما لمح فجأة لوحة «لسوتين» ملقاة فى أحد الأركان ، وقد تراكم فوقها التراب .. فصاح قائلا : «لماذا تخفى عنى هذه الرائعة ؟ إننى أبحث عن مثلها منذ عشرات السنين .. أحضر لى هذا الفتى فورا ، إننى أتحرق شوقًا إلى لقائه !»

ونشطت دروب باريس بحثا عن اليهودى التائه ، الذى حضر بثيابه الرثة أمام الأمريكى الثرى ، فأمر بإرساله إلى الحمام ، وعهد لأحد الخياطين الإنجليز بصنع ثياب له ، ثم أسكنه فى «فيللا» فى «بارك مونتسورى» ، حيث كان يقيم «براك» و «لوركا» و «فوجيتا» .. لكن الفنان المنحوس لم يستطع أن يتطبع بطباع

البرجوازيين ، وظل طول حياته ذلك الصعلوك الذى ألقت به الأقدار من أقصى الشمال إلى قلب عاصمة الأناقة والفن ..

* * *

● **وأعلن** هتلر الحرب على العالم .. وعلى اليهود . وامتلأ قلب الفنان جزعا ، فذهب للتطوع فى صفوف الجيش الفرنسى ، ولكن طلبه لم يقبل .. واحتل الألمان باريس ، فاختفى «سوتين» عن الأنظار هربا من بطش النازى .. وكانت أنباء اليهود الذين يعدمون رميا بالرصاص ، تصل إليه فيزداد رعبا .. واضطر إلى الهرب إلى (تورين) بإيطاليا ، ليقضى أيامه ولياليه فى غاباتها ، تحاصره الهواجس السوداء وآلام القرحة ..

وازدادت حالته سوءا ، فحملوه إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية .. لكنه مات قبل أن يمسه مشرط الجراح ، سنة ١٩٤٤ ، وهو يصيح : «احلقوا لى ذقنى ، فأنا لا أريد أن أذهب إلى العالم الآخر بلحية كثة» !

فنان فرنسى علمه الشرق

● **منذ** سبعين عاما ، كان «هنرى ماتيس» ـ النقاش النكرة ـ يعتلى سلما خشبيا ، يرسم بريشته مئات الأمتار من «الكرانيش» التى تزخرف القصر الكبير ـ «الجران باليه» بباريس ـ نظير بضعة فرنكات ، ينفق منها على نفسه وعلى زوجته ، التى كانت تشاركه الكفاح ، بعد أن ضاق أبوه ـ تاجر الغلال ـ ذرعا بالإنفاق عليه ، فقطع عنه المرتب الشهرى الذى ظل يرسله له زهاء عشر سنوات كاملة .

كان عمره وقتئذ ثلاثين عاما ، قضى معظمها فى دراسة القانون والاشتغال بالمحاماة .. ثم تبين فجأة أنه ضل الطريق ، وأن الفن هو المناخ الوحيد الذى يستطيع التنفس فى أجوائه ، فقرر أن يبدأ الرحلة الطويلة من جديد .. وراح يتردد على مراسم الفنانين ومعاهد الفن ، ليستعين بها على صقل مواهبه التى تكشفت له فجأة ..

* * *

● **واليوم** تتدلى من على جدران نفس الـ «جران باليه» ٢٥٠ لوحة ، أبدعتها ريشة نفس الفنان «ماتيس» ، وقد جمعت من أطراف الأرض ، احتفالا بمرور مائة عام على مولده[١] .

ولقد وقفت طوابير لا حد لها من البشر أمام لوحات «ماتيس» مبهورة بسحر ألوانها ، مأخوذة بمهرجانها اللونى الذى ينثر حوله رذاذ البهجة ، مؤكدا أن الحياة شىء جميل ، وأن الألوان هبة السماء ، لولاها ما رأت العين سوى الظلام ، ولما تبينت غير السواد ..

---

(١) نشر هذا الفصل لأول مرة فى عام ١٩٦٩ . فى الذكرى المئوية لمولد «ماتيس» .

لم يكن «ماتيس» يرى من الحياة غير جانبها المشرق ، وكان يقضى معظم وقته فى حديقة منزله التى نسقها بيده ، يتأمل زهورها وهى نشوى بألوانها الزاهية ، وسيقانها وهى تتمايل برشاقة كراقصات «الباليه» . فتعلم حديث الألوان من شفاهها ، وتلقن لغة الحركة من انثناءات سيقانها ..

وكان يقضى من يومه اثنتى عشرة ساعة فى حوار طويل شائق مع الألوان .. هذا الحوار الذى أمده بأغنى موسوعة لونية عرفها فنان ، وجعله «يبلبط» فى الألوان كطفل مسلوب الإرادة أطلقوه فى متجر للعب والحلوى .. حلمه الكبير أن يلون الدنيا بفرشاته ، وأن يزيل من مناخها فصول الجفاف ويلبسها رداء الربيع الدائم !..

* * *

●وفى عصر القلق والأزمات والحروب ، نصب «ماتيس» نفسه نبيا للأمل ، وداعيا للسلام النفسى فى دنيا الفن . وأطلق دعوته وسط دوى الرصاص ودخان البارود ، معلنا عن مذهبه الجديد : «أريد فنا خالصا ، خاليا من التعقيدات والمضايقات .. فنا متزنا نقيا ، يأنس إليه الإنسان ، ويجد المتعب أمامه راحته ، ويشعر المكتئب إزاءه بالهدوء النفسى ، والرضا ، والسكينة ..» !

وعلى هدى هذه الفلسفة راح «ماتيس» يعب من بحر اللون ملء راحتيه ، ويغترف من معين الأضواء البهيجة المصفاة ، يؤلف منها كلا نبيلا يمتع العين ويفتح أمامها منافذ الرجاء والأمل .. تتناغم فى رحابه مشتقات الأزرق الصريح ، والوردى الباسم ، والأخضر الغض ، والبنفسجى الحالم ، والبرتقالى الدافىء ، والأصفر الرنان ، والرمادى الناعس .. سيمفونيات بطيئة الإيقاع ،



«عارية على المقعد» لوحة للفنان «هنرى ماتيس»

هادئة النبض ، تمتص المتاعب وتلقى بالقلق فى «مزبلة» اللالون ، واللاضوء ، واللاحياة !.. وكانت نفس الفنان المرهفة كإبرة البوصلة ، تعرف أين تتجه بحثا عن شمالها الذى يرشدها إلى ينابيع الصفاء ..

* * *

●وفى **الفنون** الشرقية ـ وفنون شمال إفريقيا بالذات ـ عثر «ماتيس» على كنزه .. فى سنة ١٩٠٦ ، سافر إلى المغرب وانغمس فى أجوائه ، وملأ فراغ نفسه بزخرفية مذاقه ، وبشفافية عناصره ، وثراء تراكيبه ، وبساطة مضامينه .. ولم يكتف بهذا بل عاد محملا بمختلف الطنافس والمنسوجات والمرايا والأوانى الخزفية والنحاسية وقطع الأثاث ، التى ملأ بها مسكنه فى جنوب فرنسا ، فإذا به يتحول إلى ما يشبه سوقا شرقية فى أحد دروب بغداد ، أو (خان الخليلى) الذى يتوسط القاهرة القديمة ..

وفى هذا المناخ الشاعرى الجميل ، كان يطيب له أن يريح ريشته بعض الوقت ، ويمسك الكمان ـ التى كان يجيد العزف عليها مثل «ديلا كروا» و «آنجر» و «روسو» ـ يقضى ساعات مع الأنغام ، و «الألوان المسموعة» .. !

وكان يقول لزوجته : «كم أخاف أن أفقد بصرى ذات يوم ، فلا أستطيع مواصلة التصوير ، لذلك أفكر فى شىء لا يحرمنى منه فقدان البصر .. وهو الموسيقى ..»

* * *

● **وعندما** قامت الحرب العالمية الثانية وجد «ماتيس» نفسه محاطا بالجنود الألمان ، يفرضون الحراسة على لوحاته ، ويقبضون على كريمته «مرجريت» ـ لاشتراكها مع قوات المقاومة ـ ويحكمون على زوجته بالسجن ستة أشهر ، لقيامها بطبع المنشورات السرية على الآلة الكاتبة ..

.. ثم عاد السلام إلى ربوع فرنسا ، وعادت الحياة إلى مرسم «ماتيس» ، وأكاديميته التى كان يتردد عليها طلبة من مختلف الأجناس ، والتى خرجت منها مدرسة باريس .. ثم قرر الإقامة نهائيا فى (ميدى) ، التى كان يعتبرها ملتقى برودة الشمال ودفء الجنوب ، وعقلانية الشمال وشاعرية الجنوب ، ومجمعا للتقليد والإبداع ، والشمس والضباب ، والحقيقة والخيال !

وبدأت صحة ماتيس تسوء مع تقدم سنه ، فكان دائم الشكوى من أمعائه ، واضطر إلى إجراء عملية جراحية خطيرة لاستئصال آلامه .. نجا منها بمعجزة أوحت إليه بأن يبنى كنيسة صغيرة فى (فانس) يصممها ويؤثثها ويزخرفها بنفسه .. نذرا ، واعترافا بفضل السماء التى أمدت فى عمره ليستمتع برؤية المزيد من الألوان !.

وكان وهو يقترب من نهايته ينصح شباب الفنانين قائلا : «إن واجباتكم أن تجملوا الحياة ، وأن تهذبوا مدينة الغد وحضارة المستقبل ، وتساعدوا على إتمام بناء هذا المستقبل والحفاظ على بهائه»..

هذه كانت وصيته قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، بين ذراعى كريمته ، فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ..

« مايكل أنجلـو » العصـر الجـديد !

● **إذا** كان « بيكاسو » قد استطاع أن يتربع على عرش التصوير الحديث أكثر من نصف قرن ، فإن المثال الإنجليزى « هنرى مور » استطاع ـ هو الآخر ـ أن يتربع على عرش النحت دون منافس أو منازع ، إذ ظل ميدان النحت شاغرا بعد وفاة المثال الفرنسى «رودان» ، قبل أن تتجه الأنظار إلى ذلك الشاب الذى كلف بعمل أحد النحوت الأربعة البارزة فى محطة «مترو» سان جيمس بلندن ، سنة ١٩٣٨ ، وهو فى الثلاثين من عمره !

كان النحت فى أوربا كلها يتعثر فى أسمال التقاليد النحتية القديمة ، تقيده واقعية متزمتة ، تحاول فى يأس أن تتخلص من أغلالها .. إلى أن جاء «هنرى مور» وأعلن ثورته على القوالب الموروثة ، واتجه بكل كيانه إلى الطبيعة البكر يستوحيها ، ويستنطقها ، ويتأملها بنظرة أكثر عمقا وأكثر شمولا ، باحثا فى أعماقها عن جوهر القوانين الخلاقة ، التى تشكل الطبيعة وتكسبها قوالبها وأشكالها المرئية والملموسة ..

لم يتعلم « هنرى مور » من تاريخ الفن ، بقدر ما تعلم من التاريخ الطبيعى ، والجيولوجيا ، وعلم الأحياء .. ولم يتعلم من متاحف الفن وأقلام النقاد ، بقدر ما تعلم من المحاجر والكهوف ، وما تلفظه الأمواج من أصداف على الشاطىء ، وما يترسب فى قيعان الأنهار من حصى وزلط ..

* * *

● **كان** إيمانه بالنحت على الحجر إيمانا وثنيا يبلغ حد التطرف .. فالنحت عنده معنى مجسد للشموخ المجسد ، يبثه الفنان تدريجيًا فى الحجر والصخر .. ينمو تحت



«تكوين عضوى» للمثال المعاصر «هنرى مور»

الأزميل والمطرقة كما ينمو الجنين فى رحم الأم ، وكما تنمو الأشكال فى مشيمة الطبيعة .. والشكل حصيلة تفاعل الشيء بالزمن ، الذى يمر بأنامله العبقرية على الصخور وكثبان الرمال وجذوع الشجر ، يشكلها فى هوادة وحكمة ، بالإضافة والحذف ، بالسلبية تارة وبالإيجابية تارة أخرى ..

وعوامل التعرية هى آلة الزمن وأزميله ، ينحت به النتوءات الصخرية التى تبرز شامخة لتحتضن الفضاء .. وينخر به الفجوات التى تبدو كالكهوف ! !

ومن هذا التناغم بين الكتلة والفراغ .. بين السالب والموجب .. من هذا الحوار الأبدى بين المصمت والأثيرى ، وبين الناتىء والأجوف ، انطلق «هنرى مور» فى عالم التشكيل ، يبعث الحياة فى الكتلة الصماء ، ويبث فيها نبضا إنسانيا عميق الأثر ، متعدد الأبعاد ، ويودع الجسم الصلب إحساسا يفيض بالآدمية ، ويبث فى الصورة الآدمية إحساسا غامرا بالقوة والصلابة والصمود ..

ولأول مرة يطرق الشمول المجرد أبواب الكتلة والفراغ ، فلا يعرف الشيء بفسيولوجيته وسماته التشريحية ، بل بهيئته العامة التى توحى بها الإشارة الذكية ، وينطق بها التلميح الخفيف والاختزال المركز ...

* * *

● **وعندما** قامت الحرب العالمية الثانية ، توقف «هنرى مور» عن الإنتاج النحتى ، بعد أن تعذر عليه الحصول على الأحجار اللازمة لصنع تماثيله العملاقة .. ولكن طاقته الخلاقة لم تستسلم لهذا النقص ، فانكب على الرسم يصنع منه أشكالا بلا عدد لتماثيل يجسدها على صفحات الورق ، يعوض بها متعة النحت بالمطرقة والأزميل ، حتى أنه عندما دعى لتسجيل إنطباعاته عن الحرب التى

كانت بلاده تخوضها ضد العدوان النازى ، لم يصور المعارك المألوفة فى ساحات القتال ، بل اختار موضوعا جانبيا بالغا فى الواقعية .. اختار المخابىء والأنفاق التى كان يأوى إليها المدنيون أثناء الغارات الجوية .. ومن خلال رسومه الموميائية ، والكتل البشرية المتراصة داخل ظلمة الأنفاق ، عبر «هنرى مور» تعبيرا «دانتيا» ـ غاية فى البلاغة والصدق ـ عن مأسوية الحرب .

وما كادت «صفارات الإنذار» تصمت نهائيا ، حتى ذاعت شهرته خارج حدود بلاده ، ودعى لإقامة معرض شامل لأعماله فى متحف الفن الحديث بنيويورك ، وشيكاغو ، وسانِ فرنسيسكو .. وفى كل بلد كان ينزل فيه كانت شهرته تسبقه ، وكأنها إعلان بظهور نبى مبشر برسالة جديدة ..

وفى عام ١٩٤٨ ، توج هنرى مور انتصاره الجماهيرى بانتصار رسمى ، بحصوله على الجائزة الدولية الأولى فى النحت من «بينالى فينيسيا» .. ثم جاء دور باريس ـ عاصمة الفن ـ لتعترف بالفنان الإنجليزى ، وتقيم له معرضا فى متحف الفن الحديث ، يطوف بعد ذلك متنقلا بين عواصم العالم ..

* * *

●**كان** جميع النقاد متفقين على أن هذا المثال ليس أعظم النحاتين المعاصرين فى العالم فقط ، بل إنه أكثرهم ذاتية بما تتميز به أعماله من خصائص نحتية ، وقدرة على التعبير عن روح العصر ، وبما تتسم به من اتزان صرحى خارق ، وإيقاع نبيل ، وتناغم بين الجزء والجزء .. والجزء والكل .. وبما تحتويه أشكاله من طاقة موحية تنبثق من أغوار سحيقة . وتطوف فوق السطح فتغمره بإحساس صوفى ،

يجمع ويلخص جميع المشاعر الدينية التى تحتويها أصناماالهندوس . وأوثان الأفارقة . وآلهة الفراعنة . وأيقونات الكنيسة !

إن تلك البدائية النقية التى تنجلى عنها تماثيله ، أوتيت خاصية التغلغل فى أعماق اللاشعور ، والنفاذ إلى أغوار النفس ، فتحول دون تشتت النظرة فوق ظواهر الشكل لكى لاتتوه فى متاهات السطحيات ..

إنه وهو يجتاز أصعب الطرق وأكثرها وعورة ـ بالنحت المباشر على الحجر ـ لا ينسى خاصية الخامة التى يعبر بها .. لا ينكر الطبيعة الصخرية ، وهو يعبر عن رخاوة الأجسام الآدمية .. ولا يرضى بغير الفضاء الواسع خلفية لتماثيله التى تبدو فى إطارها جليلة شامخة ، مثل قمم الجبال وهى تلامس السماء وتعانق السحب ..

إن «هنرى مور» ـ الذى كان يصهر البرونز فى (كاسارولة) زوجته ، سنة ١٩٣٨ ليصنع منه تماثيل صغيرة . رخيصة الثمن . سهلة التداول ـ أصبح يصنع تماثيل برونزية تزن عشرات الأطنان ، وتحتل أهم ميادين العالم ، وتقدر بملايين الدولارات !

جمجمة فيل تصنع فنانًا كبيرًا

لم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ أن ابن أحد عمال المناجم فى انجلترا سوف يكون له مقام بارز فى تاريخ النحت المعاصر مثل مقام «مايكل انجلو» فى تاريخ النحت فى عصر النهضة .. فما الذى أضافه « هنرى مور » ابن عامل المناجم إلى فن النحت ؟؟

إن كلمة « نحت » حسب منطوقها اللفظى تعنى أن هناك عاملاً خارجيًا ينحت الأجسام ، فيغير معالمها الأصلية ، ويحولها من صورة لأخرى ..

فمثلاً لو تأملنا الجبال التى تناطح السحاب ، وكثبان الرمال التى تفترش الصحراء ، والصخور البركانية التى ترقد فوق شطآن البحر ومجارى الأنهار . لوجدنا أنها اكتسبت أشكالها الحالية نتيجة لعوامل جوية أو مناخية ، أو بفعل التيارات الهوائية أو المائية التى تصفعها باستمرار ، أو من أثر تدحرجها فوق الأرض واحتكاكها الدائم بقشرتها الصلبة ، وهذا ما يسميه علماء الجيولوجيا « التحات » ...

إن الرياح أثناء هبوبها تلعق صدور الجبال وتعرى بعض أجزائها فتتآكل . وتأخذ أشكالاً مغايرة للأشكال السابقة ... إنها أنامل الطبيعة الفنانة التى تعيد تشكيل الكتل الصخرية وكثبان الرمال بالإضافة والحذف ، أو بالاغتراف والترسيب ، وتصنع هذا المتحف الهائل الذى يبهرنا بتنويعاته فى الصحراء . والجبل والشواطىء الصخرية ..

ونحن عندما نشاهد مبتكرات الطبيعة يبهرنا ذلك التوافق والتناغم الدقيق الذى يحكم أشكالها ، ذلك لأنها لم تتشكل تشكلاً جزافيًا أو عشوائيًا ، وإنما تخلقت تبعًا لإملاءات الظروف البيئية التى شكلتها بهوادة ورفق فى رحلة تكوينية

طويلة استغرقت آلاف القرون .. وأسفرت عن هذه التكوينات والتراكيب والقوالب والأشكال التى علمت الإنسان «ألف باء» النحت ...

من هذا المنطلق يحدد «هنرى مور» موقفه من لغة النحت ومفهوم التشكيل ... فليس النحت محاكاة حرفية لمظاهر الطبيعة ، ولكنه اتباع لقوانينها التى تشكل مظهرها الخارجى . واستخدام هذه القوانين استخداماً عقلانياً ووجدانياً لإكساب العمل الفنى صفة الكونية التى تؤهله للخلود .

ويقول «هنرى مور» موضحاً فلسفته النحتية .. «إن هدفى أن أوفق بقدر ما أستطيع بين القيم النحتية المجردة وبين الأفكار والموضوعات التى أسعى إلى تحقيقها .. » إن الفن عبارة عن جرعة تجريدية إلى حد ما .. بل إن القيم التجريدية التى يتضمنها العمل الفنى هى الأسس التى يقوم عليها ويقيم بها . وفى رأيى أن الأثر السيكولوجى للعنصر الإنسانى له نفس الأهمية أيضاً .. فإذا تلاحمت القيم التجريدية مع العنصر الإنسانى فى العمل الفنى فإن مضمونه يكون أعمق وأشمل ..

وفى رأيى أيضاً أن العمل الفنى يحتوى على حيوية ذاتية خاصة به .. وأنا لا أعنى بذلك تلك الحيوية التى تعكسها الحركات التمثيلية التى تموج بها الحياة ، مثل حركة الجسم أو الرقص أو ما أشبه ذلك . وإنما يشتمل العمل الفنى على طاقة كامنة فيه ، وشحنة مؤثرة تنبع منه ، متحررة من الموضوع الذى يمثله ، وعندما يحتوى العمل على هذه الشحنة فلا ينبغى أن نخلط بينها وبين «الجمال» كما هو مفهوم فى الفن اليونانى أو عصر النهضة لأن هذا الجمال ليس هو الهدف من النحت ، إذ أن بين «جمال التعبير ، وقوة التعبير» فارقاً كبيراً فى الوظيفة والهدف .. فالأول يهدف إلى إثارة الحواس ، أما الثانى فيحتوى على قيمة روحية أكثر غوصاً ونفاذاً من الحواس . ولو أن العمل الفنى لا يستهدف محاكاة الظاهر ،

إلا أنه ليس هروبًا من الحياة ، بل تغلغل أكثر فى أعماق الحقيقة ..

إن الفن ليس مجرد مهدىء أو مخدر لتسكين النفس ، وليس تدريبًا للذوق ، ولا جمعًا بين عنصرين فى تأليف ممتع .. وليست وظيفته زخرفة الحياة وتجميلها ، وإنما التعبير عن معنى الحياة ..

ويقول «هنرى مور» .. «هناك ثلاثة أوضاع للجسم الإنسانى .. الوضع الواقف ، والجالس ، والراقد .. وأقلها صلابة واستقرارًا هو الوضع القائم ، لأن التمثال يكون معرضًا للسقوط إذا كسر من عند الكاحل .. ولذا حاول اليونان معالجة هذه المشكلة بتغطية المواقع الهشة بالأردية والملابس .. أو الاتكاء على جذع شجرة ..

أما التمثال الجالس فهو أكثر استقرارًا وهيبة ، لأنه مقيد بالمقعد الذى يحمله ، ولذلك كان التمثال الراقد أكثر الأوضاع جميعًا حرية واستقرارًا لأنه ليس مقيدًا بشىء ، كما أنه يتواءم مع فكرة الديمومة وطول البقاء والرسوخ» .

ويستخدم «هنرى مور» مختلف الخامات فى صنع تماثيله ، ولكنه يفضل الحجر عنها جميعًا لأنه يتيح له أن ينحته بالمطرقة والأزميل كما تفعل الطبيعة .. فهو «نحات» حتى النخاع .. وليس «عجانًا» .. لأنه حتى التماثيل التى يصنعها من الجبس فإنه يتعمد أن يزيد فى حجمها قليلاً لكى يتاح له «نحتها» بالإزميل كما يفعل فى الحجر لكى يحصل على الملمس المطلوب ..

وعندما صادفته مشكلة تعذر الحصول على الكتل الحجرية الضخمة أثناء الحرب العالمية الثانية ، استعاض عنها بكتل من الحجر الصناعى الذى يمنحه إحساسًا شبيهًا بالحجر الطبيعى ..

ويرى «هنرى مور» أنه من الخطأ أن يفرض الفنان على الخامة ما يتنافى مع طبيعتها ، إذ ينبغى أن يحتفظ الحجر بخاصيته الصرحية ، ولا تفرض عليه طبيعة

أخرى تتعارض مع صلابته كرخاوة وطراوة الجسم البشرى ..

ويقول أيضًا .. إن «النحات» إنسان يسيطر عليه الإحساس بالكتلة والشكل فى كل شىء .. يستهويه معنى النمو فى النبات ، والصلابة فى العظام ، والمرونة فى الانثناء اللحمى فى جذع شجرة الخوخ ، كلها تعطيه مادة نحتية لا تختلف عما يمنحه جسد المرأة أو طفلة جميلة ..

وفى رأيه أن أى شىء فى الطبيعة يساعد الفنان على الخلق والابتكار سواء كان إنسانًا أو حيوانًا أو صخرة أو زلطة أو قوقعة راقدة فوق الرمال ... فهو يجمع كل ما يصادفه من هذه الأشياء ويحتفظ بها فى مشغله ويعود إليها ليستلهم منها عملاً كبيرًا يحتل ميدانًا أو حديقة عامة ..

ويقول «هنرى مور» لقد كانت جمجمة فيل ميت هى المعلم الأول الذى أوصلنى إلى ما أفعل الآن .. وكذلك علمنى الزلط كيف أشكل وأصقل الحجر ، وعلمتنى العظام قوة التماسك والبناء والتحول الانسيابى من الجزء إلى الجزء الذى يليه . وعلمتنى جذوع الأشجار مبادىء الانتقال المفصلى ومرونة الالتواء ..أما القواقع فهى خير نموذج للكمال الشكلى والبنائى يمكن أن يتصوره الإنسان فى الطبيعة .

«رينوار» ، فنان الصحة والشباب والجمال

● **انقضت** أربعة وستون عاما على وفاة الفنان الكبير «بيير أوغست رينوار» ، (فى ٣ ديسمبر ١٩١٩) ، الذى كان يغترف ملء راحتيه من معين الجمال ونضرة الشباب وبهجة الحياة ، وينثر الرذاذ المعطر فوق لوحاته ..

ولد فى (ليموج) ، فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٤٠ . وكان أبوه خياطا رقيق الحال ، لم يستطع أن يوفر لزوجته ولأولاده الخمسة رغدا من العيش ، فانتقل بهم إلى باريس طمعا فى حياة أفضل ..

وبالرغم من رقة حال الأسرة ، فإنها كانت على شىء من الذوق الرفيع .. وفى هذا المحيط المتواضع ، نشأ «رينوار» ـ الذى كان كثيرا ما يرافق أمه فى نزهاتها فى غابات «لوفسين» . حيث كانت هى تلفت نظره أثناء سيرها ، إلى مواطن الجمال فى الطبيعة ، وتغرس فى قلبه بذرة الفن وحب الجمال منذ الطفولة ..

وذات مرة ، اكتشف مدرس الموسيقى بالمدرسة أن «رينوار» الصغير يتمتع بصوت رخيم ، وكان من الممكن أن يحول هذا الكشف اتجاهه نحو الغناء .. غير أن أهله وجدوا من الأفضل ـ بعد أن ظهرت ملكاته فى الرسم ـ أن يلحقوه «صبيا» فى أحد مصانع الخزف والصينى ، ليرسم فوق الأقداح والأطباق والأوانى حليات من الزهور ، نظير خمسة فرنكات مقابل كل دستة يقوم بزخرفتها .

ولم يلبث المصنع الذى كان يعمل به أن أغلق أبوابه ، بعد أن انتشرت طريقة الطبع الآلى فوق الصينى ، فلم يجد الغلام ـ ذو السبعة عشر ربيعا ـ طريقة لكسب قوته سوى الرسم فوق مراوح السيدات ، ينقل عليها صورا منقولة عن «بوشيه» و «واتوه» و «لانسير» ..

● **وبرغم** ماكانت تلقاه هذه الرسوم من رواج ، فإنها لم تكن ترضى طموحه فى أن يصبح فنانا يصور لوحات حقيقية كتلك التى يراها فى «اللوفر» .. فقرر ـ بما ادخره من نقود ـ أن يلتحق بمرسم «جليير» ، وأن يلتحق ـ فى نفس الوقت ـ بالدراسات الليلية بمدرسة الفنون الجميلة ، ليرسم «الموديلات» الحية ويستمع إلى محاضرات التشريح .

وفى مرسم «جليير» التقى بكل من «مونيه» ، و «بازيل» ، و «سيسلى» .. وتوطدت العلاقة بينهم ، فكانوا لا يفترقون إلا نادرا .. وكان مذهب الواقعية ـ الذى يتزعمه كل من «كوربيه» و «مانيه» ـ هو المذهب السائد فى ذلك الوقت .

وكان طبيعيا أن يتبع «رينوار» ورفاقه هذا المذهب فى بدء حياتهم الفنية ، غير أنه لم يلبث أن أعلن تمرده على الأكاديمية والواقعية معا .. وقرر هو وزملاؤه أن يعبروا عن أنفسهم بطريقتهم الخاصة ..

وكانت نظرية «شيفرى» فى علم الضوء ـ التى تشير إلى تأثير الألوان الأساسية على العين إذا ما جاور بعضها البعض ـ تلقى اهتماما كبيرا فى الأوساط العلمية . واستهوى الجماعة هذا الكشف الجديد ، فانطلقوا يطبقونه فنيا فى العراء ، فى ضواحى باريس ، وراحوا يصورون الطبيعة ويسجلون رعشة الضوء وهو يلامس الأشياء فى مختلف ساعات النهار . ثم يعودون للاجتماع فى المساء ، فى مقهى «جير بوا» ليناقشوا آراءهم مع «بيسارو» ، و «سيزان» ، والكاتب «إميل زولا» ..

* * *

● **وتشتتت** الجماعة التى أبدعت الحركة التأثيرية بنشوب الحرب الفرنسية البروسية ، وانضم «رينوار» إلى إحدى فرق الخيالة فى (بوردو) ، حيث أعجب به

رئيسه إعجابا شديدا ، وقال له أنه يتمتع بموهبة عسكرية نادرة ، ونصحه بالاستمرار فى سلك الجندية بعد انتهاء الحرب .. ويقول «رينوار» متهكما : «لو كنت احترفت جميع الحرف فى الدنيا ، لوجدت من يشجعنى على الاستمرار فيها جميعا ..»

ويعود «رينوار» إلى باريس ـ بعد أن يفقد فى الحرب «بازيل» ، آخر أصدقائه ـ وينطلق يصور الحياة الصاخبة فى شوارعها ومقاهيها .. وكان يكلف أخاه بالوقوف عند ناصية الكوبرى ليستوقف المارة ويسألهم أسئلة عشوائية ، لمجرد تعطيلهم ، لكى يتيح له ـ وهو يقف فى نافذة بالدور الثانى ـ أن يصورهم فى حركاتهم المختلفة وسط الزحام.

ويلمع اسم «رينوار» داخل فرنسا وخارج حدودها ، كواحد من رواد الحركة التأثيرية الجديدة . ويسافر مع زوجته الشابة إلى الجزائر وإيطاليا . وفى روما ، يصور زوجته عدة صور عارية . وفى «باليرمو» يتعرف على «فاجنر» الموسيقار العالمى ، فيرسم له صورة فى ٢٥ دقيقة !

* * *

● **ثم يعود** إلى فرنسا ليجد نفسه قد زهد التأثيرية ، التى استنفدت بالنسبة إليه جميع أغراضها ، فيقول : «لقد وصلت إلى نهاية التأثيرية ، وأشعر بأننى أقف فى طريق مسدود» !

ويدفعه إحساسه إلى تحويل فنه تحويلا كاملا ، فيبدأ اهتمامه بالتكتيل الذى لا يخلو من المبالغة ، فيصور الأطفال والنساء منتفخى الأوداج والنهود والأرداف ، ويشترط على من يلتحقن بخدمته أن يكن ممتلئات الجسم ناعمات البشرة ،

لكى يستغلهن ـ إلى جانب أعمال البيت وتربية الأطفال ـ كموديلات للوحاته .. !

ويواصل «رينوار» عمله فى إصرار ، متناسيا آلام الروماتيزم والتهاب المفاصل الحاد ، الذى كان يرغمه على استعمال المقعد المتحرك فى تنقلاته ، كما كان يرغمه على ترك باريس والإقامة جنوبا فى «كان» . تلمسًا للدفء ...

وعندما عجز ـ فى أواخر أيامه ـ عن استعمال أصابعه ، لم يستسلم للعجز ، بل كان يربط الفرشاة فى معصم يده بشريط لاصق ، ويرسم فى إصرار ، وهو يقول : «إننى أسعد حظا من «ديجا» الذى فقد بصره ..» !

وفى عام ١٩١٩ ، مات رينوار إثر نوبة قلبية ، عن ٧٨ عاما .. بعد أن ملأ الدنيا بأريج الورود ، ونضرة الشباب وأطياف المرح !



«عازفة القيثار» لوحة للفنان «رنوار»

ابن الذوات الذى عشق
بنت البلد

● **اذا** كانت منارة الإسكندرية قد أصبحت مع الأيام رمزا للثغر ، الذى يطل على أعرق بحار الدنيا ، فإن الفنان «محمود سعيد» استطاع أن يجعل من «بنت البلد» شعارا حيا ينافس المنارة العتيدة ، ويرمز لهذه المدينة المضيافة ، التى تفتح صدرها لملايين الهاربين من لهيب الصيف .. تجفف عرقهم بنسائم الشمال التى تحملها أمواج البحر ..

لقد أضحت «بنت بحرى» السمراء الفاتنة ، التى يشع من عينيها وشفتيها سحر أنثوى غامض ، والتى كان الفنان يرى فيها مخلوقا عجيبا يجمع بين الطيبة والشراسة .. وبين الصفاء النفسى والدفء الجنسى .. وبين الرضاء الناعم والحزن القاتم .. أصبحت هذه المخلوقة ـ التى تجمع بين المتناقضات ـ ظاهرة تميز فن «محمود سعيد» ابن الإسكندرية البار .. وابن الذوات الذى ثار على طبقته ، وترك مباهج القصور .. ونزل إلى الشوارع والأزقة ، يخالط عامة الناس ، يترجم لهجتهم «الإسكندرانية» إلى خطوط وألوان وظلال .. يفرشها فوق لوحاته ، صانعا منها اللبنات الأولى «لمدرسة الإسكندرية»

* * *

● **كان** يرى فى كفاح الطبقة الكادحة ، وخاصة الصيادين فى صراعهم الدائم مع الأمواج ، وإيمانهم العميق بالقدر و «المكتوب» .. وتشبثهم بالقوى الغيبية التى تتجلى فى عباداتهم وطقوسهم وأذكارهم .. وفى وقوفهم أمام جلال الموت ..

وفى هروبهم من قسوة الواقع إلى الشاطىء ساعة العصارى ، بصحبة زوجاتهم وأطفالهم ..

كان يرى فى كل ذلك صورة صادقة للانسان الذى يواجه الحياة ، بكل أسرارها وغموضها ومقدراتها ، يتحداها بعنف تارة .. ويستسلم لها تارة أخرى ..

واذا كان «سيد درويش» يقف على الجانب الآخر ، يؤدى دوره التاريخى فى فن الموسيقى والغناء ، ويفتح آفاقا جديدة للقوالب الغنائية يعتصرها من وجدان الشعب ، ويلتقطها من أفواه الباعة وشفاه المنشدين .. فان «محمود سعيد» يقف فى مواجهته ليؤلف معه ثنائيا رائعا ، يتبادلان أمتع حوار بين الشكل والنغم .. ويرسيان معا قواعد جديدة لفن له سماته ومذاقه المصرى الصميم ..

* * *

● **ولد** بالإسكندرية ، سنة ١٨٩٧ .. وفى صباه شاهد مظاهر الفخامة والأبهة التى تحيط بأبيه «محمد باشا سعيد» ، الذى رأس الوزارة قبل الحرب العالمية الأولى .. وكان بديهيا أن يسلك ابن الذوات ـ منذ البداية ـ طريقا مرسوما يضمن له المستقبل المفروش بالورود .. وكان المدخل الطبيعى لهذا المستقبل هو سلك القضاء.

وجريا على عادة أولاد الذوات فى ذلك الوقت ، تلقى محمود سعيد علومه الأولية فى منزل الأسرة ، على أيدى مدرسين خصوصيين .. ثم التحق بكلية فيكتوريا ، ثم بالمدرسة السعيدية ، ثم بالمدرسة العباسية الثانوية .. وبعد حصوله على شهادة البكالوريا ، التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وحصل منها على «الليسانس» سنة ١٩١٩ ، وبدأ صعود السلم الوظيفى من أولى درجاته .

حيث عين وكيلا للنيابة بالمحاكم المختلطة .. وصار يتدرج فى مناصب القضاء ، حتى أصبح مستشارا بمحكمة الإسكندرية المختلطة ..

وقدر للصبى ـ ابن رئيس الوزراء ـ أن يعانى منذ مطلع حياته مرارة صراع داخلى ، فرضته عليه ظروفه الطبقية .. صراع بين ما يخططه له أهله من منهج حياة .. ، وبين ما يشعر به فى قرارة نفسه من حب للخلق والابداع .. فمن ناحية مستقبله ، سلك الطريق الذى يرضى أهله .. ومن ناحية ميوله ، استطاع ان يوفق بينها وبين رغبات أهله ، بتردده على مراسم الفنانين «كازوراتو دافورنو» و «أرتورو زاثبيرى» ، يتلقى على أيديهما مبادىء الفن .. ثم يعبر البحر من وقت لآخر ـ فى العطلات الصيفية ـ لزيارة متاحف أوروبا ، ولأداء بعض الدراسات فى مراسم «جران شوميه» و «أكاديمية جوليان» بباريس ، وليتتلمذ بعض الوقت على الفنان الفرنسى المعروف «بول ألبير لوران» ..

● **واستطاع** «محمود سعيد» ـ بنفاذ بصيرته وإرهاف حسه ـ أن يضع يده على سر الخلود فى تراث أجداده ، المتميز بقوة البناء والاستقرار والرصانة والوقار ، والذى يثير فى النفس أعمق الأحاسيس الصوفية النبيلة .. ويطعم بها أعماله ، التى تعتبر قنطرة تربط حضارة الشرق والغرب .. ومعبرا يوصل الشاطىء المصرى بالشواطىء الأوروبية .

ومضى «محمود سعيد» فى عمله المزدوج ـ كفنان وكمستشار قضائى ـ إلى أن بلغ الخمسين من عمره ، وعندئذ أحس بأنه لم يعد يحتمل ازدواج الشخصية ، فقرر الاستقالة من منصبه القضائى ، والتفرغ للفن .. فكان أول فنان يعين مقررا للجنة الفنون التشكيلية بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .. وأول فنان تشكيلى يحصل على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون .

ويطرأ مع الأيام تحول ظاهر فى فن «محمود سعيد» ، الذى ظل محتفظا بشموخ

قوالبه وصلابة أجسامه .. فقد بدأت ألوانه الداكنة تزيح عنها قتامتها شيئا فشيئا . وكأنها غشاوة تشاؤم تهاوت من أمام عينيه . لتكشف عن عالم متفائل يفيض بالألوان الزاهية الشفيفة ، التى ظلت تلازمه حتى فارق الحياة سنة ١٩٦٤ .

المـرأة ونصيبهــا من العبقـرية !

● **يذكر** لنا التاريخ عددا غير قليل من أسماء نساء ذاعت شهرتهن فى مجالات الحياة المختلفة ، أمثال حتشبسوت ، ومدام كورى ، وشجرة الدر ، وجان دارك ، والخنساء ، وزنوبيا ، ورابعة العدوية ، وجورج صاند وغيرهن .. كانت بينهن حاكمات اشتهرن بالدهاء ، ومحاربات خضن المعارك والحروب ، وعالمات أسهمن فى البحوث العلمية والاجتماعية ، ومتصوفات وشاعرات وأديبات أفصحن عن كوامن نفوسهن بالكلمة والعبارة ..

ولكن الباحث بين صفحات التاريخ ، يعجز عن العثور على اسم انثوى واحد ، استطاع أن يشق طريقه وسط زحام العبقريات ـ التى كانت تجود بها عصور النهضة ـ فى مجال الفنون التشكيلية ، فى قطاعات متفرقة من الزمان والمكان . فقد ظل دور المرأة مقصورا على إلهاب خيال الرجل ، يستلهم منها سمات الجمال ورقة الملامح .. ووقفت عند حدود الإبداع والإنتاج موقف المتفرج ..

* * *

● **فهل** معنى هذا أن الطبيعة قصرت العبقرية الفنية على الرجل دون المرأة ؟.. أو هل فرضت الظروف على خيالها ـ برغم خصوبته ـ قيودًا وحدودًا حرمت عليها تخطيها ؟.. وإلا فأين مكانها من هؤلاء العمالقة الذين أثروا التراث الإنسانى بروائعهم ، أمثال «ليوناردو دافنشى» ، و «مايكل انجلو» ؟

منذ أن وضع الإنسان الخطوط الأولى فوق جدران الكهوف والمعابد ، لم تسهم المرأة باعطاء شىء من ذاتها فوق السطح الجامد أو الجسم المصمت ، بل راحت تصب مواهبها فى مجالات أخرى من مجالات التعبير ، كما هو واضح

فى المعابد والمقابر المصرية القديمة ، حيث نراها مرسومة على جدرانها وهى تعزف الموسيقى . أو تغنى . أوترقص وتقوم بمختلف الحركات البهلوانية بمهارة ورشاقة نادرتين .

وربما كانت طبيعة الفن التشكيلى ـ فى مراحله الأولى ـ هى التى فرضت على المرأة التنحى عن هذا المجال .. فقد كان التصوير والنحت ـ فى رحلتهما الطويلة مع الانسان ـ ملازمين للعمارة والبناء .. فظلت عقدة التخصص حكرا على الجنس الخشن ، حتى بعد أن انفصلت «لوحة الحامل» عن الجدار ، وأصبحت شيئا يمكن مزاولته فى الحجرات والمراسم .

* * *

● **غير أن** بوادر تحرر المرأة من هذا القيد ، بدأت تظهر مع التحول الفكرى والاجتماعى ، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. ففى فرنسا وإنجلترا ، لاح فى الأفق قبس خافت ، راح يتسلل فى استحياء عقب الثورة الفرنسية واتساع رقعة الإمبراطورية البريطانية .. وظهرت الفنانات «مارى نورز» و «إنجليا كوفمان» فى إنجلترا ، و «مدام لوبران» فى فرنسا ..

ولأول مرة ظهر اسم المرأة فى سجل الفنانين الخالدين ، وبدأت لوحاتها تحتل مكانها فوق جدران المتاحف والقصور ..

ثم أعقب ذلك فيض غامر من الفنانات ـ مع بزوغ فجر القرن العشرين ـ أصبح يهدد احتكار الرجل لهذا الفن عبر العصور . فما كاد النصف الأول من هذا القرن يفتح صفحة جديدة لطموح المرأة وتطلعاتها ، ويعطيها بعض الحقوق التى حرمت منها فى الماضى ، حتى بدأت الأسماء النسوية تترى على الحقل الفنى ،

وانطلقت المرأة بكل طاقتها لتعوض ما فاتها . ولتعبر عن نفسها بنفسها ، دون ما حاجة إلى وصاية الرجل .. ولأول مرة نسمع عن «برت موريسو» ، و «ميرى كاسا» ، و «ماريا بلانشار» ، و «سوزان فالادون» ، و «مارى لورنسين» .. اللاتى لمعت أسماؤهن جنبا إلى جنب مَع صانعى الحركة الفنية الحديثة .

● **وتعتبر** «إنجليا كوفمان» إحدى الفنانات اللاتى أسهمن فى وضع دعائم فن التصوير البريطانى فى القرن الثامن عشر .

كان أبوها فنانا سويسريا من الدرجة الثالثة ، يقيم فى إنجلترا ، ويزاول مهنته فيها .. ولما بلغت الطفلة العاشرة من عمرها ، بدأت مواهبها تتفتح بصورة مذهلة ، وراحت ترسم رسوما لا تقل فى روعتها عن رسوم الفنان المحترف ..

وعندما بلغت الطفلة منتصف العشرة الثانية ، رافقت أباها فى رحلة إلى إيطاليا ، حيث تعرف على زوجة السفير البريطانى ، التى أعجبت بالفنانة الطفلة إعجابا شديدا ، فأخذتها معها إلى إنجلترا حيث قدمتها إلى أرقى الأوساط ، فلم تلبث أن ذاع صيتها ، وأصبحت من المقربات إلى الملكة الشابة ، التى كانت شديدة الإعجاب بشخصيتها وثقافتها ، إذ كانت إلى جوار مواهبها الفذة فى الرسم ، وجاذبيتها المفرطة ـ تجيد العزف والغناء ، وتتكلم أربع لغات بطلاقة ..

وفى سنة ١٧٦٤ ، رشحت الفنانة الشابة لكى تكون من الأعضاء المؤسسين للأكاديمية الملكية .. وفى نفس السنة ، تورطت فى زواج سرى مع وصيف الكونت «دى هورن» ، الذى خدعها بانتحال شخصية سيده !

* * *



«الفنانة وطفلتها»

لوحة للفنانة «مدام لوبران»

● **وكانت** الفنانة الفرنسية «إليزابيث لويز فيجى لوبران» أيضًا ابنة لأحد مصورى الشخصيات الفرنسيين ، مات أبوها فأكملت رسالته وهى مازالت طفلة ، حتى أنها عندما بلغت الخامسة عشرة كانت تقوم برسم الشخصيات بعبقرية نادرة أذهلت الجميع ..

وتزوجت فى صباها من تاجر اللوحات الثرى «مسيو لوبران» ، الذى تولى إدارة شؤونها وأتاح ما فى حوزته من أعمال كبار الفنانين فرصة نادرة للفنانة الصغيرة لدراستها عن كثب ، لتعلم الكثير من أسرار الفن . وفى سنة ١٧٨٣ ، قبلت مدام لوبران عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ، وأصبحت ـ خلال السنوات الأخيرة من الحكم الملكى ـ من المقربات للبلاط ، ورسمت صورا عديدة للملكة مارى أنطوانيت وأطفالها ، قبل أن تسلمهم الثورة للمقصلة ..

وعندما زعزعت أحداث الثورة أركان فرنسا ـ سنة ١٧٨٩ ـ هربت إلى إيطاليا حيث استقبلت بحماس بالغ . وطافت بعدة دول ، حتى استقرت الأحوال فى فرنسا ، فعادت إليها سنة ١٨٠١ ..

ومع أن الفنانة الفرنسية اندمجت بكيانها كله فى الثورة ، وفى الكلاسيكية الجديدة التى أعقبتها ، إذ كانت ممن نادوا بها ـ فإن سمات الأرستقراطية الفرنسية ظلت عالقة بأسلوبها ، تحكى عنها أروع لوحة أنثوية معلقة فى متحف اللوفر ، تمثل الفنانة الحسناء وهى محتضننة طفلتها ، فى وضع يعكس عاطفة الأمومة التى لا يمكن أن يعبر عنها إلا امرأة تنبع هذه العاطفة النبيلة من أعماقها .

دوميه شهيد الصحافة

● **عندما** كانت رسوم «دوميه» الكاريكاتيريه تملأ الصحف والمجلات، وتطل على الناس بخطوطها الساخرة، كانت قدرته التصويرية مجهولة تماما إلا من فئة قليلة من أصدقائه الحميمين.. فقد طغت شهرته كرسام كاريكاتيري، وكمدافع عن الحرية، على شهرته كمصور وفنان مبدع.

ويبدو أن تفوقه النادر فى الرسم والطبع على الحجر «الليتوجراف» ـ الذى كان قد اكتشف حديثا ـ هو الذى حجب عن النقاد مزاياه التصويرية، إذ كانوا يعتقدون أن اضطراره للعمل الصحفى، كوسيلة لكسب القوت، هو الذى عطله عن ممارسة فن التصوير وتفرغه للفن البحت..

ونحن إذ نقف اليوم على بعد كاف من حياة هذا الفنان الكبير، نستطيع أن نعرفه على حقيقته، ونرى كيف كانت حياته موزعة بين الرسم الصحفى، وبين التصوير.. لأن حب التصوير كان يمتزج بدمه. وكان يرسم، لا طمعا فى المال، ولكن لأنه كان عاشقا للحياة، ولأنه كان يشعر بدافع شديد يدفعه إلى تسجيل واقعها كما يراه ويحسه..

إننا نستطيع أن نضع أصابعنا على مساوىء المجتمع الفرنسى ـ فى ذلك العصر ـ من خلال أعمال «دوميه»، وأن نتعرف على مدى انحلال الأخلاق وتفشى الجشع وانتشار النفاق، والرغبة فى الثراء السريع. ونستطيع كذلك أن نقدر موقف الفنان المرهف الذى شاهد فرنسا تتقاذفها الفوضى بين الجمهورية والملكية، ثم بين الملكية والجمهورية مرة أخرى، فدفعته إنسانيته وتحمسه للديموقراطية إلى خوض معركة الفكر، وتجنيد ريشته للإصلاح عن طريق النقد، كما فعل «موليير» من قبل.. فراح يعرى الأوضاع بشجاعة، ويفضح جشع

الأطباء والمحامين والوزراء ورجال الدولة ، الذين كانوا فى نظره كالنباتات الطفيلية المتسلقة ، تنبت على أكتاف الطبقة الكادحة الجديرة بالحياة وبناء المستقبل .. وذات مرة ، دفعه حماسه إلى انتقاد الملك «لويس فيليب» بقسوة ـ فى مجلة «الكاريكاتير» ـ فكان ذلك سببا فى دخوله السجن ليقضى فيه ستة أشهر .. ولكن هذه العقوبة لم تثن من عزمه ، ولم تمنعه من الاستمرار فى أداء رسالته ، فما أن غادر السجن حتى عاد إلى عمله بنفس الحماس والتدفق ..

* * *

● **ومع أن** قيمة «دوميه» التصويرية لم يكن معترفا بها فى البداية ، إلا أن شخصا واحدا ـ على الأقل ـ كان يؤمن بعظمة فنه وندرة أسلوبه ، فراح يقارنه بـ «مايكل أنجلو» . إذ كان يرى أنه لا يقل عنه عظمة وعبقرية .. ذلك الشخص هو «بلزاك» شاعر فرنسا الكبير ، الذى لم يكن يرى فى «دوميه» مجرد صحفى مرتزق ، بل كان يجد فى أعماله التصويرية قيمة فنية وجمالية وتعبيرية لا تقل روعة عما فى لوحة «يوم الحساب» التى تعتبر رائعة «مايكل أنجلو» الخالدة ..

ولا شك فى أنه ما من فنان استطاع أن يجسد العواطف الإنسانية ، التى تعكسها أسارير الوجوه وحركات الأجسام وإيماءات الأطراف ، بهذه الغزارة والقدرة مثلما فعل «دوميه» .. فكان الأشخاص فى لوحاته يبدون وهم منغمسون فى حياتهم العامة على سجيتهم ، لا يشغلهم شاغل ، دون أن يقلل أى عنصر دخيل من دفء انفعالاتهم .

ولقد استطاع «دومييه» أن يمتص آلام البشر ، وأن يحس بما يثقل كواهل

الناس من قلق ومخاوف وضغوط وآلام ، وأن يفصح عن هذا كله بحرارة وبلاغة وأستاذية نادرة !..

* * *

● اسمه الكامل «أونوريه فيكتورين دومييه» . من مواليد مرسيليا . سنة ١٨٠٨ .. وكان أبوه يعمل فى تركيب زجاج النوافذ والأبواب .

اشتغل فى صباه ساعيا لدى بعض المحامين ، ثم عمل صبيا فى متجر لبيع الكتب .. وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره ، أرسله أبوه ليدرس الرسم على يدى الأستاذ «ألكسندر لينوار» ، أحد تلاميذ الفنان «دافيد» .

وكان «لينوار» يتبع الطريقة الأكاديمية فى تعليم الرسم ، عن طريق النقل عن التماثيل الجصية .. وكان «دومييه» يمقت هذه الطريقة العقيمة ، ويفضل عليها التعلم من الحياة مباشرة . فكان ينزل إلى الطرقات يصور الناس فى تجمعاتهم وفى ممارستهم لحياتهم اليومية .

والتحق «دومييه» بمجلة «الكاريكاتير» ، التى كانت تهاجم الملك بقسوة . ثم التحق – فيما بعد – بمجلة «كاريفارى» .. وكان لرسومه النقدية تأثير بالغ على الجماهير . حتى أنه عندما صور برسومه مذبحة «ترانسنوتان» – التى قام بها جنود الملك – خاف «لويس فيليب» من عاقبة انتشارها بين الناس ، فأمر بتحطيم «الكليشيه الحجرى» للرسم . وأصدر أمرا بحظر هذا النوع من الرسم ، بعد أن وقعت محاولة لاغتياله .. وكان هذا أكبر انتصار لريشة فنان تناضل من أجل قضية الإنسان !

* * *

● **وعاش** «دوميه» مع زوجته ـ التى كانت تشتغل بحياكة الملابس ـ عيشة الكفاف ، برغم عمله المتواصل ، وبرغم اعتراف الدولة بفنه فى أواخر أيامه ، حين منحته وسام «جوقة الشرف» . ولكنه رفض قبوله ، لأنه ـ حسب قوله ـ أصبح فى سن لم يعد فيها للتكريم أية قيمة بالنسبة إليه !

وأمام ضعف بصره وتقدم عمره لم يعد قادرا على الرسم ، ولم يعد قادرا على الوفاء بالتزامات الحياة ، حتى أنه لم يستطع دفع الإيجار الزهيد لمنزله المتواضع ، وأمره مالكه باخلائه فورا ..

وفى هذه اللحظة الحرجة من حياته ، تقدم المصور الفنان «كورو» فاشترى المنزل بماله الخاص ، وقدمه هدية إلى «دوميه» ، وراح ـ بكل تواضع ـ يخفى كرمه وراء ادعائه بأنه لم يفعل ذلك إلا نكاية فى المالك السابق للبيت .

وعاش «دوميه» أيامه الأخيرة على الإعانة الضئيلة التى استطاع بعض أصدقائه أن يحصلوا له عليها من الدولة .. حتى أصيب بنوبة قلبية ، مات على أثرها سنة ١٨٧٩ .. ولم يكن فى منزله من النقود ما يكفى لمراسم الدفن ، فتولتها الحكومة ! .. وكان نصيب كل فرد من الأشخاص الأربعة الذين حملوا جثمانه إلى مقره الأخير ثلاثة فرنكات فقط !

وفى العام التالى ، نقل الجثمان إلى مقبرة العظماء (بير لاشيز) ، حيث يرقد بجوار صديقه الوفى .. الفنان «كورو» .

* * *

أماه .. لماذا لم تتركينى أموت ؟

● **جلس** القزم المشوه «هنرى تولوز لوتريك» فى مرسمه ـ بحى مونمارتر ـ ينظر بعينين دامعتين إلى ساقيه الملتويتين ، متمنيا لو استطاع أن ينتزعهما من جسده ويلقى بهما فى قاع السين ، فيتخلص من عذابهما إلى الابد ! .. لم تترك له ساقاه اللعينتان فرصة ينعم فيها بما ينعم به الناس من حرية الحركة والاستمتاع بالحياة .. إذ لم تكد عيناه تتفتحان على مظاهر النعمة والترف ـ فى رحاب قصر أمه الشامخ العتيق فى مدينة «ألبى» ـ حتى أصيبت ساقاه بالكساح ، ثم بكسور مضاعفة أقعدته سنين طويلة عن الحركة ، وأدنته مرارا من حافة الموت .. وظل القزم المشوه قابعا فى مقعده ، يرى نصفه الأعلى ينمو ، وأعضاءه تتفتح لاستقبال سمات الرجولة والشباب ، بينما تزداد ساقاه نحولا وضمورا مع الأيام ..

ولم تجد الأموال الطائلة ـ التى أنفقت لعلاجه ـ فى إنقاذه من عاهته .. ولم تفلح الساعات الطوال ـ التى كان يقضيها فوق آلة التجديف ـ فى إصلاح عيوب جسمه .. بل ظل يحمل هذا المسخ القبيح طوال حياته ، ليواجه به مصيره المأسوى الحزين ..

● **جلس** «هنرى» يسترجع ذكريات طفولته السعيدة .. وكيف كان ينطلق كعصفور طليق ـ فى قصر أمه ـ ويركض بمهره الصغير فوق المروج المحيطة بالقصر .. وكيف كان أبوه «الكونت دى تولوز لوتريك» ـ المنفصل عن أمه ـ يأتى من وقت لآخر ، ليأخذه لنزهة قصيرة فى حدائق «التويليرى» ، أو غابة «بولونى» ، أو حلبة السباق التى تعج بطبقة النبلاء والأشراف .. ثم يصحبه ـ بعد ذلك ـ إلى مدرس الرقص ، ليتلقى على يديه أصول هذا الفن الأرستقراطى الرفيع !

ويحملق الفتى فى ساقيه القصيرتين ، وهو يستعرض فى خياله ذلك الحفل

الساهر الذى أقامه له أبوه ، بعد أن أتقن الرقص .. وكيف ظل يراقص الفتيات الحسناوات ، اللاتى كن يتسابقن للارتماء فى أحضانه ، فيخاصرهن بذراعيه القويتين .. وكيف كانت ساقاه تتحركان فوق الحلبة فى خفة القط ورشاقة الغزال ، على أنغام التانجو وإيقاع الفالس .. فيزداد سخطه على ساقيه وعلى قدره ..

ويمضى «تولوز» فى استعراض فيلم ذكرياته ، فيقفز إلى خاطره معلمه الأصم الأبكم «برنستوت» ، مصور الخيول المعروف .. وكيف التقى به لأول مرة فى حلبة السباق ، وكيف ترك أباه وأصدقاءه ، وجرى إلى حيث جلس الفنان العجوز ، ليشاهده وهو يصور الخيول فى سكونها وانطلاقها وعدوها ، ببراعة فائقة .. فلما لاحظ الفنان اهتمامه بالرسم ، ناوله ورقة وقلما ، وأشار إليه أن يرسم .. وما أن لمس بوادر النبوغ تشع من خطوطه الواثقة الجريئة ، حتى كتب فى ذيل الورقة بخط يده «جيد جدا» !

* * *

● **لم يكن** «هنرى» يدرى حينذاك أن هذه الملحوظة سوف تحدد مستقبله ، وتحول أحلام طفولته من بحار مغامر يجوب بسفينته البحار السبعة ، إلى فنان يسبح بخياله فى بحور الألوان والظلال ..

وها هو ذا يصبح ذلك الفنان الذى أراده له قدره .. ويقفز اسمه فجأة إلى قائمة النجوم ..

لم تكن الشهرة التى أصابها الفنان الكسيح سوى جناحى وهم ، رفعاه إلى قمة لم يعثر فوقها على سعادته المنشودة .. لقد ظن أن الناس سوف يعميهم فنه



«رقصة (الكان كان)» للفنان «تولوز لوتريك»

عن بشاعة منظره وعيوب جسمه ، وأن الفتيات سوف يشاهدن فى الفنان القمىء عملاقا يملأ الدنيا بقوامه الفارع .. ولكنه تبين أنه كان يعيد تمثيل أسطورة «إيكاروس» .. الذى أراد أن يحلق فى الفضاء بجناحين من شمع ، فأذابت حرارة الشمس الجناحين .. وهوى إيكاروس إلى الأرض .. وهى القصة التى سبق أن رسمها وتقدم بها إلى الصالون ، للحصول على اعتراف به كمصور وفنان ..

حاول مرة أن يهب قلبه واسمه ومجده إلى «دنيس» ـ كريمة البارونة «فرونتيناك» ، صديقة العائلة ـ بعد أن آنس منها بعض الميل إلى مجالسته . ولكنه ما أن لوح لها بالزواج ، حتى انتفضت كمن لسعتها عقرب ، وهى تصيح فى وجهه : «ألا ترى بشاعة خلقتك ؟.. هل هناك فتاة فى الدنيا ترضى بأن تكون زوجة لك ؟!»

* * *

● **عندما** يئس «لوتريك» من العثور على شريكة لحياته كزوجة شرعية ، راح يبحث عنها فى بيوت الدعارة ، وعلب الليل .

● انطلق بجنون يبحث عن المرأة .. ليشبع نهمه الطبيعى.راح يطرق متاجر اللذة من جديد .. ويلوح بالدنانير ، لعل الأبواب تفتح فى وجهه .. والتفت بائعات الهوى حوله ، لم يجدن فيه ذلك الوحش المخيف الذى كن ينفرن منه .. كان سخيا فى الدفع ، فلم يسمع منهن ما يخدش كرامته .. وكثر تردده على هذه المواخير ، حتى أصبح صديقا شخصيا للبغايا ، يحكين له أسرارهن ودقائق حياتهن .. وأفردن له غرفة خاصة يقضى فيها ليله ونهاره ، ويرسم فيها متى يحلو له الرسم !

وخفق قلبه للحب من جديد ، عندما تعرف على عارضة الازياء اليهودية «مريم» ، التى رفضت أن تتعدى علاقتها حدود الصداقة ، فتركته يتخبط فى ظلام وحشته ، وهربت .

وفى المستشفى ، حملوا إليه رسالة تهنئة بأرفع أوسمة الدولة : «الليجيون دونور» ، وسام الشرف . ولكنه يتناول الرسالة .. ويمزقها !

ويترك المستشفى ليعود إلى إدمان الخمر ، فينهار جسمه وعقله ، ويصاب بالشلل .. ولا يبقى له مكان يلجأ إليه سوى أحضان أمه ، يلفظ فى دفئها آخر أنفاسه .. وصديق طفولته يهمس فى أذنيه : «هنرى ! .. لقد علقوا إحدى لوحاتك فى متحف اللوفر .. لقد أصبحت من الخالدين .. !»

* * *

الفن يخطف رجال القانون ..!

● **أنت** تهيىء نفسك للسفر فى رحلة طويلة .. تعد حقائبك . تودع أهلك وأصدقاءك ، تشترى تذكرة إلى الإسكندرية .. تجلس فى مقعدك بالقطار . تستعرض لوحات الريف وهى تطل عليك من زجاج النافذة ..

وفجأة ، يقفز إلى رأسك خاطر مفاجىء .. تنهض من مقعدك ، فتخطف حقيبتك ، وتنزل فى أول محطة .. تأخذ القطار المتجه إلى السويس . أو المنصورة ، أو أسيوط .. لقد تغير هدفك فجأة .. لقد اكتشفت ـ بعد أن قطعت نصف المسافة ـ أن هدفك الحقيقى ليس الإسكندرية !

قد يحدث هذا لك ، وقد يحدث لأى إنسان آخر .. فتغيير خط السير من محطة إلى محطة أمر عادى ، كثير الحدوث .. ولكن تغيير حياة كاملة . تغيير مستقبل بأكمله ، مغامرة كبرى لا يقدم عليها كل إنسان ..

وفى تاريخ الفن فنانون كثيرون قاموا بهذه المغامرة ، غيروا مجرى حياتهم تغييرا كاملا .. لقد شاء لهم القدر مصيرا غير الذى حددوه لأنفسهم أو حددته لهم الظروف ..

* * *

● **ولقد** حدث هذا للفنان «فان جوخ» ، الذى بدأ حياته واعظا بين عمال المناجم ، ثم مدرسا للغات ، ثم بائعا للوحات ، قبل أن يكتشف أنه خلق للفن وحده .. وأنه أخطأ الطريق !

كذلك فعل «جوجان» ، الذى كان مصرفيا ناجحا ، يتعامل فى السندات والأوراق المالية ، ثم إذ به يهرب من وظيفته ومن وطنه ، ترافقه علبة ألوانه وفراجينه .. وقصة «روسو» ، الجمركى الساذج الذى استقال من وظيفته ، بعد أن شغلها أربعة عشر عاما ـ أسقطها بشجاعة من عمره ، ليبدأ مع الألوان من جديد !..

وكان «كاندسكى» و«سيزان» و «ماتيس» فنانين خلدهم التاريخ . وكلهم درسوا القانون أو مارسوه بالفعل .. ولكنهم لم يكتشفوا أنهم خلقوا للفن إلا فى منتصف الطريق . فبدأوا الرحلة من جديد .. وكان من الممكن أن تبتلع ملفات القضايا أسماءهم إلى الأبد . وتحرم الإنسانية مما أضافوه إلى التراث من فن وفكر ..

* * *

●**وبرغم** قلة الأسماء اللامعة التى تضمها قائمة فنانينا المصريين . فإن نسبة غير قليلة من هذه الأسماء تنتمى ـ أو كانت تنتمى ـ إلى القضاء . والقانون .. ونستطيع أن نذكر منهم ستة أسماء لامعة ـ على الأقل ـ لفنانين أو نقاد مصريين أرسوا قواعد الفن أو النقد فى حركتنا الفنية والحديثة : منهم محمود سعيد . ومحمد ناجى . وسند بسطا . وصلاح جاهين . وبدر الدين أبو غازى . ونعيم عطية .. وكلهم من رجال القانون !

كل واحد من هؤلاء له قصة ومغامرة !.. (محمود سعيد) ـ ابن رئيس الوزراء ـ يترك منصة القضاء . ليغلق على نفسه باب مرسمه . باحثا عن ذاته وسط الألوان الدافئة .. لم يكن «محمود سعيد» مجرد فنان هاو . بل كان دعامة فى تاريخ حركتنا الفنية . وحجر الزاوية فى بناء مدرسة كان هو رائدها وأول من أشار إلى سماتها الأصلية ..

و«محمد ناجى» . يكتشف أخيرا أن همس الألوان أقرب إلى قلبه من سلطة القانون . فينغمس فيه بكل وجدانه .. وكان أول فنان مصرى يسافر إلى الحبشة . بحثا عن الطبيعة البكر . والألوان التى تنبثق من مروج الفطرة .. كما فعل «جوجان» من قبله !

أما «سند بسطا» المحامى ، فقد كان له باع طويل فى الصور الشخصية .. ولقد استجاب الفنان «صلاح جاهين» ـ بعد أن طال تردده بين كليتى الفنون الجميلة والحقوق ـ لداعى الفن ، فألقى بكل ثقله فيه ، فتألق رساما وشاعرا وناقدا ، ونسى كل ما تعلمه من أحكام القانون .. أما فى مجال النقد الفنى ، فنذكر الأستاذ «نعيم عطية» ، الذى يشغل منصبا قضائيا كبيرا .. وهو من رجال القانون ، ومن أعمق من كتبوا فى الفن .. ولم تشغل المناصب الكبرى التى حظى بها الأستاذ «بدر الدين أبو غازى» ، لم تشغله عن متابعة الحركة الفنية عن كثب ، والكتابة فيها بعمق ، شارحا ومقدما وناقدا ..

إن هذه الظاهرة تجعلنا نتساءل : هل هناك قنطرة غير مرئية ، تربط بين ضفة اللوائح والأحكام ، وضفة الألوان والظلال ؟!..

قنطرة تجعل العبور بينهما سهلا وممكنا ؟!.. أم أن هناك حساسية خاصة توقظها دراسة القانون ، فتجعل رجاله من أكثر الناس استجابة لداعى الفن ، وأقربهم إلى الارتماء فى أحضانه .. حتى لو أدى ذلك إلى إنكار الماضى بكل معاناته ؟!

* * *

العبقــرى المعتــوه

● **لم يكن** يعترف بعدد السنين التى يحملها فوق كتفيه ، ولا بالشعيرات البيضاء التى تحصى خطوات الأيام ، ولا بالتجاعيد الغائرة التى تحفر أخاديدها بعمق فى وجهه المستدير .. وإنما الحياة فى نظره طفولة دائمة .. ربيع بلا شتاء .. يعذبه قلب يفيض براءة وسذاجة وصفاء نفس ، وعين تتفتح على عالم ملىء بالرؤى الجميلة والأحلام الوردية ..

وقديماً قالوا : طوبى للأطفال ، فإنهم يرثون الجنة !! .. ولقد فتحت الجنة أوسع أبوابها لطفل عجوز .. وفى ظلالها أقام عرشه ، ونصب نفسه ملكاً على كل ما يزحف فوق عشبها الأخضر ، أو ينساب بين أشجارها الفيحاء ، أو يحلق فى سمائها الصافية بلا غيوم .

وطفلنا العجوز فنان وأسطورة .. كان أضحوكة زملائه فى المدرسة ، وملهاة أقرانه فى العمل .. يلقبونه بالعبيط ، ويقهقهون ملء أفواههم لتصرفاته الصبيانية ، ويسخرون من تفكيره الساذج .. ويشاء القدر أن يسخر من جميع الذين سخروا من « الفتى العبيط » ، الذى قفز اسمه فجأة ليحتل مكانه بين الخالدين !

* * *

● **اسمه** « هنرى روسو » - رائد مدرسة جديدة فى الفن .. قديمة قدم الإنسان .. قوامها الفطرة النقية ، التى تنبت شيطانياً مثل الزهور البرية فى أطراف المدينة .. يمارسها فنانون هواة ، يعملون فى أوقات الفراغ فى صمت ، بعيداً عن

الأضواء ، يفرزون أحاسيسهم - بحب وصدق - خطوطًا وظلالاً وألوانا ، لذلك يسمونهم بفنانى يوم الأحد !

ولا يلبث الجماليون الذين أعمتهم قشور المدنية المبهرة وسطحية التقاليد المتوارثة ، أن ينتبهوا إلى مواطن الجمال فى فن الفطرة ، باعتباره فنًا أصيلاً ، نابعًا من أعماق نقية شفافة ، لم تتلوث بعلم مكتسب ، ولم تفسد مذاقها رواسب مدنية زائفة ..

وكان الطفل «هنرى روسو» يمثل مشكلة لأبيه «السمكرى» الرقيق الحال ، الذى كان يعيش فى بلدة (لافال) .. وكانت كل التقارير المدرسية تأتى مؤكدة فشل الصبى الحالم ، الشارد ، الذى لا هم له إلا تسلق الأشجار ، وتعقب الفراشات ، وعزف الكمان ، وقرض الشعر ، ومخاطبة العفاريت والأشباح !

وأمام رسوب الطالب المتكرر ، يضطر الأب إلى إيقافه عن الدراسة ، والبحث له عن عمل يخفف من أعباء نفقاته .. وتسمح له موهبته بالالتحاق كعازف بإحدى الفرق الموسيقية بالجيش .. وعلى الجبهة البروسية يذوق ضراوة الحرب ، ويعود منها أكثر إيمانًا بحاجة الإنسان إلى ملاذ يحميه من قسوة الواقع .. إلى شرنقة ينسجها من خيوط أحلامه ، وينعزل بداخلها عن العالم بكل شروره وآثامه .

* * *

● ويتزوج الجاويش «روسو» من «كلمانس بواتار» ، ربة البيت المخلصة ، التى كانت أكثر الناس فهمًا له ، وتقديرًا لمشاعره ، واحترامًا لمواهبه .. وبواسطة عمها استطاع أن يحصل على وظيفة متواضعة فى الجمرك ، تتيح له مرتبًا ضئيلاً ..



«الغجرية النائمة»
لوحة للفنان «هنرى روسو»

ويوم عطلة ـ فى نهاية الأسبوع ـ يتفرغ فيه لألوانه وألحانه وأشعاره ..
وتنجب له زوجته تسعة أولاد ، يموت منهم ثمانية ، وتتيتم الأخيرة ـ بموت أمها ـ فيقوم عمها على تربيتها ..

ويجد الجمركى الأرمل نفسه وحيداً فى غربته .. كل النوافذ من حوله مفتوحة على عالم أسطورى لا نظير له فى دنيا الواقع .. ولكن هناك كابوساً بغيضاً يلوث هواء جنته ، ويفسد عليه حلمه الجميل .. إن ساعات العمل التى يقضيها بين الأرقام والرسوم الجمركية ـ التى يحصلها للدولة ـ تذهب هدراً ، وتخصم من حياته بلا عائد .. وأجدر به أن يقضيها بين ألوانه وأصباغه الحبيبة .

ويدير الجمركى الحالم ظهره لأربعة عشر عاماً قضاها فى خدمة الجمارك ، ويستقيل من وظيفته غير نادم .. ليتفرغ لفنه ، وليشارك الفنانين المتمردين معارضهم وما يتعرضون له من هجمات .

* * *

● وكان من الطبيعى أن يستقبل الجمهور والنقاد أعماله بالسخرية ، فيقول عنها البعض أنها لوحات طفل فى العاشرة يحاول تقليد الكبار .. ويقول آخر : «إذا أردت أن تضحك ملء قلبك ، فاذهب لمشاهدة لوحات «روسو» .. يجب الحجر عليه إنقاذاً لأذواق الناس من تفاهاته» !

ويمضى الفنان الحالم فى طريقه لا يبالى .. يعمل ليله ونهاره فى غرفته المتواضعة ، لا يخلع عنه بذلته الوحيدة حتى أثناء النوم .. يمضى فى رسم أشجاره وغاباته ومروجه ، وأشخاصه ، وحيواناته وأفاعيه وأقماره .. معتقداً أنها كائنات

حقيقية ، تتحرك ، وتتنفس ، وتشاركه الهواء الذى يستنشقه ، وليست مجرد لمسات فوق لوحة ملساء ..

وكان يستعين على إشباع هوايته بمعاشه الضئيل ، وبالفرنكات القليلة التى كان يبيع بها لوحاته نادرًا ، وبالدريهمات التى يتصدق بها عليه المارة ، عندما يفلس فينزل إلى الشارع يعزف لهم على الكمان ألحانًا من تأليفه ..

وتوقعه سذاجته وطيبة قلبه فريسة فى يد أحد النصابين ، يشركه معه فى عملية اختلاس من أحد المصارف ، فيحكم عليه بالسجن سنتين .. مع إيقاف التنفيذ !

وعن طريق الشاعر «أبوللينير» ، يتعرف على الألمانى «هود» ، الذى كان أكثر المتحمسين لفن الفطرة ، والذى كان له الفضل فى تقديمه وأقتناء الكثير من لوحاته ..

ويصاب الفنان الساذج بغرغرينة فى ساقه .. وعبثًا يحاولون إنقاذه ، بعد أن سرى السم فى جسده . وفى المستشفى ، يسلم الروح عن ٦٦ عامًا ، وهو يبتسم للحياة .. وسبعة أشخاص يشيعون جنازته ، من بينهم المصوران «سينياك» و «ديلونى» ، والشاعر «أبوللينير» .

* * *

نساء فى حياتهم

● فى حياة كل فنان امرأة ، أو أكثر من امرأة .. قد تكون عشيقته ، أو زوجته ، أو صديقته .. أو ذكرى عابرة لفتاة التقى بها ذات مرة .. أو مجرد صورة وهمية من بنات أفكاره .. تترك بصماتها فوق كل لوحة يصنعها ، وتعكس ملامحها على كل وجه يرسمه !

وفى متاحف العالم لوحات كثيرة لنساء ذاعت شهرتهن ، ونسجت حولهن حكايات أشبه بالأساطير ، تتناقلها الألسن ، ويتداولها الناس .. بعضها حقائق .. وبعضها من صنع الخيال !

* * *

● ولعل أشهر النساء فى دنيا الفنون هى «الموناليزا» .. أو «الجيوكوندة» صاحبة اللوحة المعلقة فى إحدى ردهات متحف اللوفر .. والتى ظلت لعدة قرون نموذجاً للجمال الأنثوى ، يقف أمامها آلاف المعجبين الذين يجيئون من أطراف الأرض لمشاهدة ابتسامتها الساحرة ، ونظرتها التى تنفذ إلى الأعماق .. ويديها اللتين تعتبران أجمل يدين رسمها فنان فى التاريخ .

«موناليزا» هى الزوجة الثالثة «لفرانسيسكو جيوكوندو» ، أحد أعيان فلورنسا .. ويقول المؤرخ «فاسارى» أن «ليوناردو دافنشى» كان يستأجر فرقة من الموسيقين ليعزفوا ويغنوا لها أثناء جلوسها أمامه ، وهو يرسم صورتها ، حتى لا تفارق شفتيها الابتسامة التى خلدتها ريشته .

وهنا يدور الهمس حول علاقه الفنان الوسيم بصاحبة أجمل وجه .. وعن

السبب فى الإطالة المتعمدة فى فترة رسم اللوحة ، إذ ظل أربع سنوات كاملة يضيف إليها شيئاً من ذاته ! .. وتلوك الألسنة الكثير من الشائعات التى تضاف إلى ما نسب إلى الفنان العبقرى ـ بدافع الغيرة والحقد ـ من شذوذ جنسى ، وانحلال خلقى ، واستهتار بالقيم الأخلاقية والدينية .. ولكن التاريخ لا يترك أى دليل يدين الفنان أو يؤكد هذه الشائعات .. وتظل «الجيوكندة» فى مكانها ، متسربلة ببراءتها ، يشع من وجهها المشرق بريق ابتسامة ملائكية لا يمكن أن يشوبها دنس.

* * *

●**وفى إحدى** قاعات متحف «البرادو» . بمدريد ، لوحتان تحت اسم «الماجا العارية» .. و «الماجا اللابسة» .. وكلتا اللوحتين لسيدة ترقد على أريكة فى وضع واحد .. ترتدى فى إحداهما ملابسها كاملة .. وفى الأخرى ترقد عارية كما ولدتها أمها .. واللوحتان من أجمل روائع الفنان الأسبانى «جويا» .

وبمقارنة وجه «الماجا» بوجه لوحة أخرى لدوقة ألبا ـ بريشة الفنان نفسه ، لا نجد أى تشابه بين الوجهين .. ومع ذلك ، يجمع الناس على أن صاحبة الجسم العارى هي بعينها «دوقة ألبا» ، عشيقة «جويا» .. زير النساء .. خاطف الزوجات .. الذى حقد عليه جميع أزواج الطبقة الراقية فى عصره !

ويستمر الهمس .. إنها لم تنتظر إلى أن تنقضى فترة الحداد ، وتخلع السواد بعد موت زوجها .. بل هربت مع عشيقها الفنان إلى أملاكها البعيدة فى الأندلس ، ليبقى إلى جوارها بعيداً عن الأنظار وليرسم جسدها العارى فى هذا الوضع الشائن !



لوحة للفنان «جويا»

«فرقة الاعدام»

هذا ما كان يتهامس به الناس .. فقد كانت «دوقة ألبا» شخصية شاذة فى نظر مجتمعها ، بسبب جمالها الخارق ، وقوة شخصيتها ، وذكائها الحاد .. إلى جانب حريتها المطلقة فى التفكير والسلوك ، وتربيتها الاستقلالية المتطرفة ، التى تحدت بها جميع التقاليد الأسبانية المحافظة فى ذاك الوقت . إذ كانت تعلن بصراحة فى ندواتها الخاصة ـ التى كانت تضم الفنانين والكتاب والشعراء والموسيقيين ومصارعى الثيران ـ أن كل إنسان حر فى إشباع رغباته بالصورة التى يراها .. وليس هناك ما يدعو إلى التستر وراء أقنعة من الزيف والنفاق .. !

وكان زوجها الثرى «لويس دى فيللا فرانكا» ـ الذى تزوجها لكى يضيف لقبها إلى اسمه ـ رجلا خجولاً ، ضعيف الشخصية ، منطوياً على نفسه ، يتوارى عن دائرة الضوء التى تحيط بزوجته .. وكان ضعفه من دواعى انتشار الشائعات التى تؤكد علاقة زوجته الذكية بالفنان اللامع ، وإسرافها فى الاهتمام به أثناء مرضه الخطير ، الذى أدى إلى إصابته بالصمم الكامل .. وبقيت هذه الشائعة تلاحق الفنان والدوقة ، حتى بعد وفاتهما بزمن طويل !

* * *

● **وفى** متحف «فردريك كايزر» ببرلين ، لوحة لفتاة حسناء كتب تحتها : «هندريك ستوفلز» .. كان لها أثر كبير فى حياة «رمبرانت» ، الذى ماتت زوجته وهى تضع مولودها الأول «تيتوس» ، فاضطر إلى تعيين «هندريك» مربية لطفله اليتيم ..

وتوثقت العلاقة بين الفنان والمربية الحسناء ، بدرجة كادت تؤدى إلى الزواج لولا وصية زوجته ، إذ أوصت قبل وفاتها بأن تؤول ثروتها إلى زوجها بشرط

ألا يتزوج من بعدها .. فأكتفى الفنان بهذه العلاقة ، التى أسفرت عن طفلة غير شرعية أسمياها «كورنيليا» ، مما أساء إلى سمعة الفنان فى مجتمعه الشديد التعصب . وحرمت خليلته من حقوقها الكنسية أمام الكنيسة البروتستانتية .

وبالرغم من هذه التحديات ، فقد استمرت علاقة الفنان بخليلته التى أصبحت سيدة البيت الأولى والمتصرفة فى جميع شئونه .. تقوم بدور الزوجة ، والمربية ، والأم .. إلى أن كبر «تيتوس» وأصبح شابًا مكتمل الرجولة ..

وفجأة تراكمت الديون فوق أكتاف الفنان المسرف ، فاضطر إلى بيع جميع ممتلكاته وإعلان إفلاسه . ولم تجد خليلته بدا من الحجر عليه ـ بالاتفاق مع ابنه ـ إذ قررا أن يتوليا الوصاية عليه ، وأن يكونا شركة تقوم بتسويق إنتاجه ، والاتفاق عليه ، وتدبير جميع شئونه المالية ، دون أن يكون له حق التصرف فى شىء من أعماله إلا عن طريقهما !

وهكذا تم التصديق رسميًا على أعجب عقد بين ابن وعشيقة أبيه ، لإنقاذ فنان يصنع التاريخ من براثن الديون والدائنين !

وعاد الموت من جديد ليختطف من الفنان ـ الذى حطمته الديون والشيخوخة والمرض ـ خليلته الوفية التى سهرت على راحته فى أحلك أيامه !

* * *

عبقرى من الشرق اسمه «بهزاد»

● **فنان** شرقى صميم ، ومصور فارسى مسلم .. عاش فى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى ، واشتهر بتصوير المنمنمات الفارسية ببراعة لم يكن يدانيه فيها أحد ..

ولقد أقام فى بداية حياته فى مدينة «هراة» ، أيام الدولة التيمورية ، وأفاد كثيرًا من مخالطة كبار مفكرى عصره من الفلاسفة والفقهاء والشعراء البارزين .. وظل يعمل بهذه المدينة ، حتى بعد سقوط الدولة التيمورية على يد «محمد خان الشيبانى» .. ولما إنهار حكم الشيبانى ، تحت سيف الشاه «إسماعيل الصفوى» ، انتقل «بهزاد» إلى تبريز – عاصمة الصفويين – ضمن حاشية الشاه المنتصر ، الذى قربه إليه وأكرم وفادته ، وعينه رئيسًا للمكتبة الشاهانية ، ومشرفًا على أمناء جميع الكتاب والخطاطين والمصورين ، والمذهبين ، ورسامى الهوامش وخالطى الذهب وطارقيه ، وغاسلى حجر اللازورد .

وكان الشاه يعتبر «بهزاد» ثروة قومية لا تقدر بمال .. لذا كان يبالغ فى الحرص عليه ، والسهر على راحته وسلامته ، حتى أنه – أثناء انشغاله فى الحرب مع السلطان العثمانى سليم الأول – وضعه فى مكان أمين ، بعيدًا عن الأحداث ، حتى لا تمتد إليه يد السلطان أو جيوشه بأذى .. !

* * *

● **ويعتبر** «بهزاد» صاحب مدرسة وأسلوب منفرد ، تتلمذ عليه عدد قليل من الفنانين الذين اشتهروا من بعده ، مثل : المصورين «قاسم على» ،

و«مـقصود» ، و«ملا يوسف» ، و«عالى شيخ زاده الخرسانى» ، و«أقا ميزك على» و«مظفر على» ..

غير أنه كان يفضل عليهم جميعًا تلميذًا من الأتراك اسمه «درويش محمد نقاش» ، جعله مساعدًا له ، فكان يكلفه بتحضير الألوان والأدوات ، شأنه شأن فنانى عصر النهضة الإيطالية .. وعندما قوى عوده ، واطمأن «بهزاد» إلى كفاءته ، أخذ يعهد إليه بأعمال يستقل بها وحده ..

ولقد ذاع صيت الفنان «بهزاد» فى أيامه ، وكان الملوك والأمراء يتهافتون على اقتناء تصاويره ـ البالغة الرقة والعذوبة والشاعرية ـ بأعلى الأثمان .. وكان حكام المغول يتفاخرون بالأثمان الباهظة التى كانوا يدفعونها فى سبيل الحصول على أحد أعماله ، التى كان يبلغ ثمن بعضها من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ روبية ..

ولقد دفع الإقبال الشديد على أعمال «بهزاد» بعض الفنانين إلى تقليد فنه ، وتقليد توقيعه الذى كان يكتبه بحروف صغيرة فى مكان لا يسهل تبينه .. وكان يصف نفسه عادة «بالعبد بهزاد» أو «الفقير بهزاد» ، أو «الغلام بهزاد» .. ولذا يجد بعض الخبراء صعوبة كبرى فى تمييز أعماله عن أعمال معاصريه أو تلامذته أو مقلديه الذين كانوا ينسبون أعمالهم إليه ..

ولم يكن تأثير «بهزاد» مقصورًا على تلامذته وأتباعه فحسب ، بل تخطى أثره حدود بلاده ، وانتقلت التقاليد «البهزادية» مع الأيام إلى فن التصوير الهندى .

* * *

● **ويمكن** القول بأن «بهزاد» رومانتيكى النزعة ، غنائى الأسلوب ، يصور المناظر الطبيعية وما تحويه من عناصر نباتية أو حيوانية بشاعرية زخرفية بالغة

العذوبة والرقة .. مغاليًا فى تسجيل دقائق الأشياء . حتى أنه ليمكن تمييز زخارف السجاجيد فى رسومه بكل تفاصيلها ودقائقها مهما دقت .

وقدرة «بهزاد» على تصوير المعارك الحربية لا تضارع . وكذلك مقدرته على رسم الأشخاص ذوى اللحى . والتزامه بالتعبير عن النص المكتوب بأمانة وصدق .. وكان يلتزم بالتقاليد الفارسية . التى لا تستخدم المنظور والقصر النظرى فى الإيهام بالبعد الثالث . ولا تستخدم الظلال القاسية فى تكوير واستدارة الأجسام .. بل كان يغمر لوحاته بالضوء . وينغم وحداته بالألوان القوية الصارخة ومقابلاتها من الألوان الباهتة . معتمدًا بصفة خاصة على الألوان الزرقاء الزاهية والوردية الحالمة .

ومات عبقرى المنمنمات سنة ١٥٣٣ . ودفن فى (تبريز) بجوار الشاعر «شيخ كمال الخجندى» .

* * *

دافيد ، فنان الثورة الفرنسية

● يوم رفرف العلم المثلث الألوان فوق ربوع فرنسا ، ملوحًا بمبادىء الحرية والأخوة والمساواة ، جاء دور الشعارات لكى تتحول إلى إنجازات .. وكان لا بد للفن من أن يلعب دوره التاريخى فى الأحداث التى غيرت مجرى التاريخ .

وبالرغم من انشغال الثورة بتضميد جراحها ، فإنها ما كادت تتولى زمام الأمور حتى بدأت آثار اهتماماتها بالفنون تظهر بوضوح .. ويكفى أن نستعرض الظروف التى كان يعمل فيها الفنانون ـ فى القرن الثامن عشر ـ لكى نلمس أسباب تعثر الفن فى تلك الفترة السابقة على الثورة ..

لقد كان هدف الأكاديمية الفرنسية ـ عند تأسيسها سنة ١٦٤٨ ـ النهوض بالفن ودفعه إلى الأمام .. ولكن الواقع كان يثبت خلاف ذلك ، إذ أصبحت هذه الأكاديمية ـ مع مرور الزمن ـ جهازًا مستبدًا ، يعوق الفن بدلاً من أن يسهل له الحركة .. فقد كانت جميع الامتيازات حكرًا على أعضائها وحدهم ، لا يسمح لغيرهم بعرض أعمالهم على الجمهور .. حتى الأعضاء أنفسهم لم يكن يسمح لهم بعرض أعمالهم فى مكان آخر ، إلى درجة أن أحدهم واسمه «سيرز» طرد من الأكاديمية ، لأنه خالف تقاليدها وعرض لوحته «الوباء فى مرسيليا» بطريقته الخاصة طلبًا للمال ..

* * *

● **وإذا** استعرضنا ـ من خلال الأرقام ـ كيف قفز عدد اللوحات التى عرضت سنة ١٧٨٩ ـ وهو تاريخ آخر صالون أقيم فى عهد الملكية ـ من ٣٥٠ لوحة ،

إلى ٧٩٤ فى عام ١٧٩٠ ، وهو عام الثورة ، لتبينا الفارق الكبير بين كلا المناخين اللذين كانت تعيش فيهما الحركة الفنية . ولقد تضاعف هذا العدد إلى ما يقرب من تسعة أضعاف ، فبلغ عدد الأعمال المعروضة ٣٠٤٨ عملا فى المعرض الذى أقيم سنة ١٧٩٥ .

وتدل هذه الأرقام على الأثر المباشر الذى أحدثته الحرية . وكان أول ما صنعته الثورة هو اعطاء الفنانين حريتهم الكاملة فى التعبير ، وعرض إنتاجهم على الجماهير دون تدخل الحكومة ، التى أصدرت قرارًا بأن يكون عرض أعمال الفنانين فى قصر «اللوفر» دون تمييز بين فرنسى وأجنبى .

وبالرغم من اضطراب الحالة الاقتصادية فى البلاد ، فإن حكومة الثورة خصصت ٤٤٣٠٠٠ فرنك لتشجيع الفنانين ، وشرعت فى إنشاء المتاحف ليؤمها الشعب ، وحولت قصر «اللوفر» إلى متحف يمتص جميع الكنوز والتحف الفنية التى تحتويها القصور الملكية والأديرة وبيوت النبلاء الذين تركوا البلاد .. وفى نفس الوقت ، خصصت مبلغ ١٠٠٠٠٠ فرنك لاقتناء أعمال فنية مختلفة لإثراء المتحف الكبير .

ولقدكان ذوق الثوار الفرنسيين ينحو نحو الكلاسيكية الصارمة ، إذ كانوا يهدفون إلى إحياء حضارة الإمبراطورية الرومانية بكل أمجادها .

* * *

● **وكان** الفنان الذى تحمل عبء التعبير عن فلسفة الثورة ، هو «جاك لويس دافيد» ، الذى تتلمذ بعض الوقت على «بوشيه» .. ثم تتلمذ على

«فيين» ، الذى اصطحبه معه إلى روما عندما عين مديرًا للأكاديمية الفرنسية بها .. وفى روما ، انغمس «دافيد» فى دراسة الفن الرومانى القديم ، وتشبع بروحه ، وبدأ يرسم موضوعاته الكلاسيكية التى برع فيها ولقيت أعجابًا شديدًا عندما عرضت فى باريس ..

وفى أثناء الثورة ، كان «دافيد» أكثر المتحمسين لـ «روبسبيير» ولكنه أصبح فى خطر شديد بعد سقوط «روبسبيير» وإعدامه ، عقب انقلاب ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٤ .. ولم يستطع «دافيد» أن ينجو بنفسه ـ خلال هذه الفترة الحرجة ـ إلا بابتعاده عن السياسة وانغماسه فى الفن ..

ولما بدأ اسم «نابليون بونابرت» يلمع فى الأفق ، كان «دافيد» أكثر الناس إعجابًا به ، إذ كان يرى فيه قيصر أحلامه ، الذى سيعيد أمجاد إمبراطورية الرومان تحت العلم المثلث الألوان . وكان يقول لتلاميذه : يا أصدقائى .. إن بونابرت هو بطلى .. وهو الذى أقيمت له المحاريب فى العهود القديمة ! ..»

وجلس «نابليون» أمام «دافيد» ليرسمه .. ولكن صورته لم يقدر لها أن تتم ، لأن «نابليون» كان يكره الجلوس طويلاً بلا حركة ، ولم يكن يهمه دقة الشبه بقدر ما كان يهمه أن تثير اللوحة إعجاب الجماهير ..

ولكى يرضى الفنان بطله ، صوره فى كثير من المواقف البطولية ، فى لوحات غاية فى الدقة ، ولكنها كما أسلفنا كانت شمعية الشخصيات ، باردة المناخ ..

ومن أشهر لوحاته الشخصية صورة الحسناء «مدام ريكامييه» .التى تركته قبل أن يتمها ، وذهبت إلى تلميذه «جيرار» ـ الذى لمع اسمه فجأة ـ ليرسم لها صورة أخرى .. وبعد غياب عدة أعوام ، عادت إلى «دافيد» ترجوه أن يتم لها لوحتها ، لكنه قال ساخرًا : «سيدتى .. إن للفنانين نزوات كنزوات النساء .. ولذا يؤسفنى أن أبقى اللوحة فى نفس الحالة التى تركتها عليها ..» !

وبقيت اللوحة التى تعتبر أحدى مفاخر اللوفر دون أن تنتهى حتى الآن .

وعاد « البوربون » إلى الحكم بعد معركة « واترلو » .. ووجد « دافيد » نفسه منفيًا خارج حدود فرنسا .. حتى روما لم يسمح له بالذهاب إليها حسب رغبته .. فاضطر للإقامة فى بروكسل ، يصور اللوحات الكلاسيكية ، حتى مات سنة ١٨٢٥ .

* * *

عمالقة وأقزام !

● **وقف** الزبون الثرى يفحص عشرات الصور واللوحات داخل المتجر الكبير .. ووقف الشاب المكلف بالبيع إلى جواره ، ينظر إليه فى شىء من الضجر والتأفف ، وهو يقلب اللوحات ويعيد تقليبها عشرات المرات .

كان وجه موظف الحانوت القادم من الشمال ـ برغم ما يدور فى داخله ـ خاليًا من أى تعبير . وقد عجزت عيناه الزرقاوان وقامته الفارعة ، وجبهته التى تنزلق إلى مؤخرة رأسه ، وقفاه الريفى العريض وأذناه اللتان تغطيان نصف وجهه .. عجزت عن أن تكسبه سمة التجار ومرونتهم وسعة صدرهم وقدرتهم الخارقة على استمالة الزبائن ..

وفجأة ، انفجرت أسارير الزبون عن ابتسامة بلهاء ، وكأنه عثر على كنز ثمين .. وقال للشاب مشيرًا إلى إحدى اللوحات :

ـ أريد هذه .. ! !

ـ ولكنها لوحة رديئة يا سيدى !

ـ قلت أريد هذه اللوحة ..

ـ أنت تبدد مالك بمثل هذه السخافات .. ! !

ـ ولكنها تعجبنى .

ـ هناك ما هو أفضل منها بكثير يا سيدى .. لماذا لا تقتنى لوحة لـ «سيزان» أو لـ «مانيه» ؟؟ انظر ما أروع هذا العمل .. إنه لـ «رينوار» .. وهذا لـ «تولوز لوتريك» .. ما رأيك فى هذه الشاعرية التى تتدفق من لوحة العبقرى «جوجان» .. أليست خيرًا من هذه اللوحة التافهة ألف مرة ؟؟

ـ هذا ليس من شأنك .. أنت تبيع ما يريده الزبائن فقط .

ـ ولكنها لوحة سقيمة وغاية فى السذاجة .

ـ أنت تهيننى ! !

ـ بل أنت الذى تهين الفن .

ـ ؟؟ ! ! ! !

ـ ... ! ! !

* * *

● ويحتدم النقاش بين البائع والزبون .. وترتفع درجة حرارة الجدل ، وتصل إلى أسماع صاحب المتجر ، الذى يأتى مسرعًا ليحسم الموقف .. معنفًا الموظف المتهور ، متهمًا أياه بالجهل ، و «الجليطة» ، وقلة الذوق ، وسوء التربية .. معتذرًا للزبون الذى لا يدانيه أحد فى تذوقه للجمال ، وفهمه العميق للفن الرفيع ..

ويخرج الزبون منتفخ الأوداج ، متأبطا اللوحة الرديئة ، بعد أن امتلأت جعبة غروره بحفنة من النفاق الكاذب ، والمديح الرخيص .. وبعد أن امتلأت جيوب التاجر بالدنانير ..

ويتجه صاحب المتجر إلى الموظف المهزوم صارخًا فى وجهه :

ـ أنت ستخرب بيتى أيها الأحمق .. سأصاب بالإفلاس لو حرصت على بقائك .. اغرب عن وجهى فورًا ! .. أنت مفصول !

ويخرج «فان جوخ» غير نادم على فقدان وظيفته ، وهو يعلم ما ينتظره من جوع وحرمان ، ولكنه يواجه الواقع بشموخ المنتصر ، وبعزة «دونكيخوتية» ..فقد تصرف المقاتل الشريف ، وفق ما يمليه ضميره النقى ، وفطرته الشفافة ، وتقديسه للقيم الرفيعة ..

كان العامل المفصول هو «فان جوخ» !

* * *

● **وتتجسم** عظمة العمالقة أمام أعيننا ، عندما نعجز عن التصرف مثلهم فى مواقف الشجاعة . وقد لمست بنفسى كيف يبدو الإنسان قزمًا ضئيلاً فى مأزق الرأى ، عندما يمتحن بالإنذار بالفصل ، أو يهدد بالحرمان .. فيجبن عن إعلان رأيه بصراحة .. مختبئًا وراء أقنعة المجاملة ، وستار الحرص على مشاعر الآخرين ..

وكان ذلك فى يوم جاءنى فيه صديق يتأبط لوحة غاية فى الرداءة ، من ذلك النوع الذى يباع فى متاجر الفن الهابط ..

لم أر فى حياتى وجه صاحبى متهللاً بمثل هذه الدرجة ، وهو يقول :

ـ انظر ماذا اشتريت .. أليست لوحة رائعة ؟! خمن بكم اشتريتها ؟ تصور .. لم أدفع فيها سوى جنيه واحد .. جنيه واحد والله .. أليست صفقة ؟!

وابتسمت ولم أعلق .. لم أجد ما أقوله .. احتبس الكلام وراء أسنانى .. لم أرد أن أفسد عليه سعادته ، أو أدمر فرحته الطفولية .. وكل ما استطعت أن أقوله : «مبروك» ! .. وأنا موقن فى أعماقى أنه «لا مبروك ولا حاجة» .. فقد كان الموقف جديرًا بالرثاء . ! !

كان المسكين ـ برغم لقب الدكتوراه الذى يحمله ـ لا يستطيع أن يميز بين الجيد والردىء .. وحاولت أن ألتمس له المعاذير ، فتذوق الفن مشوار طويل وشاق ، يحتاج إلى ثقافة عريضة ، وصقل عنيد للذوق ..

ومعاناة التسلق والتشبث بالمرتفعات والقمم رياضة عنيفة .. وخطيرة ! ..

ولكن هل استطعت أن أجد لنفسى ما يبرر عدم مصارحته بحقيقة اللوحة ، مثلما فعل «فان جوخ» ؟ هذا ما لم أفعله .. ولذلك كان «فان جوخ» عملاقًا فى شجاعته ، مثلما كان عملاقًا فى فنه . وكنت أنا قزمًا بالنسبة إليه . ! !

* * *

مرثية .. للفنان الإنسان

● **لوحات** «فنسنت فان جوخ» متناثرة فى كل مكان .. فى متاحف باريس ، ولندن ، ونيويورك ، وبرلين ، وموسكو .. كبصمات فوق الجدران .. كبقع دماء فوق أرض الجريمة ، ساخنة لم تجف ، كوثائق إدانة ، كشهادات إثبات لأبشع جريمة اقترفها عصر بغيض فى حق إنسان نبيل .. جاء إلى الدنيا يحمل قلبه فوق كفيه ، يطوف به كالساقى على الناس ، يمنح عصارة قلبه لظمأى الوفاء ، والمتعطشين إلى الحب !

وكان مستعداً لأن يهب الناس نفسه ، كل نفسه .. نزل إلى أعماق المناجم ، وشارك العمال أقسى ظروف الحياة – قاسمهم طعامهم ، وشرابهم ، ومأواهم ، وأمراضهم ! .. وفى أحلك سراديب الفحم الأسود ، راح يضىء لهم شموع الأمل والرجاء ، ويمنيهم برحمة السماء .. ويذكرهم بأقوال المخلص الأكبر ، لعلها تزيح عن أنوفهم بعض السموم ، أو تزرع فى نفوسهم بعض العزاء ..

ولم ترق تصرفاته لمحترفى الكهانة ، وتجار الكلام المعسول .. فاعتبروه مارقاً على تعاليم المسيح والكنيسة ، لأنه أعطى أكثر مما ينبغى ، وأحب أكثر مما يلزم ! ..

وخرج الرجل من حلكة المناجم مطروداً ، وهو يلعن الظلام .. ظلام الكهوف ، وظلام النفوس .. خرج أكثر تعطشاً للنور ، فراح يبحث عنه فى بحور المعرفة والفن ، يغترف منها دون أن يرتوى ..

● **ورحل** إلى الجنوب ، حيث تغمر الشمس حقول القمح بدفئها الذهبى . وكان عاشق النور على موعد مع الشمس طوال ساعات النهار ، يتلقى رسائلها شعاعاً ساخناً يصهر كيانه ، فيصب ذوب نفسه فى لوحاته .. يلون أكمام «عباد

الشمس» .. ويلون جدران حجرته ، ويلون تصرفاته وكلامه ولوحاته ، ويلون الكون كله بلون النهار .. حتى لا تقوم لليل بعد ذلك قائمة ..

وأحب الرجل الناس من كل قلبه .. قطع أذنه ليهبها إلى غانية قالت له بخبث : «كم هى جميلة أذنك يا فنسنت !» .. فدفعها الرجل ثمنًا لحضن دافىء فى ليلة حمراء !

صدق الرجل الساذج الشفتين الخبيثتين ، لأنه لم يعرف سوى الصدق ، والصراحة ، والمواجهة البيضاء ، وكل مرادفات النور .

وخلع أقنعة الرياء ، وجاء للناس بقلب فى شفافية البلور ونقاء الأثير .. وكانت تصرفاته على غير ما ألفه الناس ، فاعتبروه مغاليًا ، والمغالاة فى الحب والعطاء جنون .. واتهم أعقل العقلاء بالخبل واختلال العقل ، فأودع مستشفى المجانين !

* * *

● **وقاسى** «فان جوخ» الإنسان ما لم يقاسه إنسان من قبل ، وهو يحاول يائسًا أن يحقق شيئًا من التوازن بين منطقه ومنطق الناس .. فلما فشل ، قرر أن يبحث عنه فى عالم غير هذا العالم ..

وبقيت قصة العاشق الشهيد «فنسنت فان جوخ» تطل على الناس مع مطلع كل شمس ، تتناولها أقلام الكتاب وأفلام السينمائيين ، ثم تتحول مأساته إلى أغنية ملتهبة ترددها الحناجر ، وتتلقفها ملايين الآذان ..

ومن أمتع اللحظات ، تلك التى أقلب فيها صفحات من كتاب يضم لوحات

فان جوخ ، بينما يذيع برنامج «ما يطلبه المستمعون» هذه المرثية ، التى تدين البشرية شعرًا ونغمًا بما يفوق المرارة والسهام ..

«أيها الليل المرصع بالنجوم والثريات ..
«لون سماءك بالزرقة والرماديات .
«وفى يوم صيف ..
«أنظر إلى الظلال التى تكسو التلال ،
«بعيون تعرف ظلام نفسى ..
«وأرسم الأشجار والأقحوان ..
«وأمسك نسائم الشتاء المتحشمة بالألوان ..
«فوق أرض يكسوها بياض الجليد ..
«الآن .. فهمت ماذا أردت أن تقول .
وكيف تعذبت من أجل سلامة عقلك ..
«وكيف جاهدت لكى تحرر الناس ،
«الذين لم يستمعوا إليك ،
«لأنهم لم يعرفوا .. ولعلهم الآن ينصتون !

* * *

«أيها الليل المرصع بالنجوم والثريات ..
«السحب الهائمة فى أرديتها البنفسجية ،
«تعكس زرقة عينيك يا «فنسنت» ..
«وأطياف الألوان المتغيرة ،

«والحقول الحزينة برماديتها العنبرية
«والوجوه التى تشكلها يداك الحانيتان ،
«الوجوه التى عراها الألم ..
«إنهم لم يستطيعوا أن يحبوك ..
«ولكن حبك ظل صادقًا ..
«وعندما اختفى الأمل فى أعماقك ،
«فى ذلك الليل المرصع بالنجوم والثريات ..
«أخذت حياتك .. مثلما يفعل العاشقون عادة ..
«وكأن هذا العالم لم يكن جديرًا بنبيل مثلك .. !

* * *

«أيتها السماء المرصعةبالنجوم والثريات ..
«اللوحات المعلقة فى القاعات الخاوية ،
«رؤوس بلا «براويز» فوق جدران بلا سماء ..
«عيونها تنظر إلى العالم دون أن تنسى ،
«كالغرباء الذين صادفتهم ،
«والرجال المهلهلين فى أرديتهم المهلهلة ..
«الأشواك الفضية فى ساق الوردة الدامية ،
«ترقد منسحقة فوق روحك العذراء ..
«الآن أعتقد أننى فهمت ماذا أردت أن تقول ،
«وكيف تعذبت من أجل سلامة عقلك ،

«وكم جاهدت لكى تحرر الآخرين ،
«ولكنهم لم يستجيبوا إليك ..
«ولا يزالون لا يستجيبون ..
«وأظنهم لن يستجيبوا إليك .. أبدًا .. !

* * *

صوت صارخ ، من أعماق الصمت ..!

● **هل** فى مقدور الفنان أن يتقوقع داخل صدفة ذاته ، وهو آمن مطمئن راضى النفس ، بينما الأحداث من حوله تموج هادرة صاخبة ، تطرق جدار صدفته بلطماتها الملحة ؟.. وهل يستطيع الفنان أن يغمض عينيه عما يدور حوله من الأحداث ، أو ينسحب من مسرح الحياة مكتفيا بالجلوس فى صفوف المتفرجين ، يمصمص شفتيه إشفاقا على الذين يتساقطون على خشبة المسرح ، قانعا بأن يصفق بحرارة عندما يسدل الستار ؟

الجواب يأتى إلينا عبر ١٥٢ عاما من وفاة الفنان «جويا» ، الذى عاصر أخطر الأحداث الاجتماعية والسياسية فى بلاده ، وعايش أقسى التجارب العاطفية والصحية التى هزت كيانه بعنف ..

فما من فنان عالج مشاكل مجتمعه وعكس حلو الحياة ومرها على إنتاجه ، مثل «جويا» .. حتى أنه ليعتبر أكبر ناقد اجتماعى وسياسى ، جعل من لغة التشكيل أداة للنقد فى تاريخ الفنون !!

* * *

● **كان** فنه فن رأى .. وكانت ألوانه وظلاله عبارات يصوغها للافصاح عن وجهة نظر خاصة ، أوعقيدة يؤمن بها .. وكانت لوحاته خطبا بليغة ، تقذف الشظايا والحمم فى جرأة وشجاعة أغضبت منه الكثيرين .

ففنان مثل «جويا» ، قدم من صميم الريف ليعيش فى قلب العاصمة الأسبانية ، تؤهله عبقريته للاندماج فى أرقى الأوساط ، يجالس الملوك والأمراء

والنبلاء ، ويصبح مصورا خاصا للبلاط الملكى .. فنان كهذا كان من الممكن أن تبتلعه حياة الترف ، ويرضى طموحه بما حصل عليه من مجد وجاه ..

ولكن فطرة «جويا» النقية ظلت تلازمه فوق كل قمة يرقى إليها ، فلم يعمه المجد عن رؤية الحقائق المؤلمة ، ولم يحجب عنه الثراء آلام الناس وعلل المجتمع الذى كان يتعثر فى صخور الرجعية .. فراح ينقدها بقسوة وشجاعة ، دون مبالاة بالنتائج !

فى إصرار عنيد واعتداد بالنفس جابه الحياة .. جاء من إحدى قرى «ساراجوسا» ليلتحق بأكاديمية «سان فرناندو» للفنون الجميلة بمدريد .. وأخفق مرتين متتاليتين ، فلم يقعده اليأس عن المضى فى تحقيق هدفه ..

فسافر إلى إيطاليا ، لينال ما لم ينله فى بلاده .. وهناك حصل على منحة دراسية ونصيحة من لجنة التحكيم ، بأن يقلل من طيشه واندفاعه الأهوج .

* * *

● **ويعود** إلى مدريد ليدير مصنع السجاد الذى أنشأه «شارل الثالث» منافسا به مصنع «جوبلان» فى فرنسا ، وليصبح مديرا للأكاديمية التى رفضت قبوله طالبا بها !!

ويصاب الفنان ـ المندفع بأقصى سرعة فوق سلم النجاح ـ بمرض خطير ، يفقده السمع والبصر والحركة لعدة شهور .. ولكنه ينجو من الموت بأعجوبة ، ويخرج من مرضه بصمم يلازمه طول حياته ، فيظل بقية عمره مثل «بيتهوفن» سجين الصمت !

وتتحول حياة «جويا» تحولا مفاجئا ، وتزداد سرعة اندفاعه عقب اجتيازه مرحلة الخطر .. كان يريد أن يزدرد الحياة فى لقمة واحدة ، أو أن يبتلعها فى جرعة

واحدة ، وكأنه يعيش بلا غد . وكانت شراهته للانتاج لا حد لها ، ولم يكن هناك عائق يحول بين أفكاره المتدفقة وبين أسطح لوحاته ..

وراح يعلن رأيه فى كل شىء .. فى العائلة المالكة ، ورجال الكنيسة .. حتى الأطباء صورهم بآذان الحمير !.. وانتقد الحرب والاستعمار فى سلسلة من اللوحات ، أودعها ذكرياته عن الأيام السوداء التى شهدتها أسبانيا ، خلال حرب التحرير والاحتلال الفرنسى .

وصور محاكم التفتيش ، ولوثة مصارعة الثيران ، والتقاليد الهدامة والخرافات ، وحماقة الإنسان ، والصراع المحتدم بين الإنسان والإنسان ، وخنوع السلبيين ، فى مجموعة «حفرية» سماها «النزوات» !

* * *

● اتهم بالخيانة لتورطه فى قبول أوسمة منحه إياها الوالى الفرنسى «جوزيف بونابرت» ، الذى ارتكبت جيوشه أبشع جرائم التعذيب والقتل الجماعى .. لولا أن تدخل الملك فرديناند السابع شخصيا ، وعفا عن الفنان قائلا : «إنك تستحق النفى ، بل الإعدام شنقا ، ولكننا نعفو عنك لأنك فنان عظيم !»

وظل يرسم بنفس الحرارة حتى آخر أيام حياته ، وهو فى سن الثانية والثمانين .. إلى أن مات فى منفاه الذى اختاره لنفسه فى «بوردو» ، بجنوب فرنسا ..

لقد حجبت الحياة عن سمعه أصواتها .. ولكنه ملأ الدنيا بدوى ألوانه وهدير لمساته ، ومازلنا نسمعها حتى الآن ....

بالدم يرسم لوحاته !

● **مثل** «شوبان» مات مغتربا .. ومثله مات شابا .. ومثله مات وهو يبصق الدم .. بعيدا عن وطنه ، بعيدا عن أمه سليلة الفيلسوف الكبير «سبينوزا» .. سافر إلى فرنسا بحثا عن أفق أكثر رحابة يتسع لمواهبه ، ولما يتجاوز الاثنين والعشرين ربيعا . وفى باريس ، عاش موديليانى بين حى «مونبارناس» و «مونمارتر» ، يعطى لفنه أكثر مما يأخذ .. وفى حجرته الضيقة كان ينحت ويصور .. وكان يجلس بجوار المدفأة ، على ضوء مصباح الكيروسين الخافت ، يحملق فى كتلة الحجر ، ينفذ إلى أعماقها .. ويمسك الأزميل ويهوى على الحجر الأصم ، ليكشف عن طراز جديد من التماثيل ، كان يرى فيه بعثا للقيم النحتية التى قتلها «رودان» وأتباعه .

كان يعتقد أن فن النحت فقد صلابته وأصيب بالميوعة ، والسبب هو الصلصال الذى يعجنه المثالون بأصابعهم .. الصلصال مادة رخوة ، لا يمكن أن توحى بالصلابة والقوة .. ومن يريد أن يحتفظ بمعانى الصلابة فى النحت ، فليعد إلى النحت المباشر على الحجر ، كما كان يفعل القدماء .

* * *

● **تخور** قوى الفنان الشاب وهو يصارع المادة الصلبة .. فتمتد يده إلى زجاجة «البراندى» يفرغها فى جوفه ، وإلى لفائف السموم يملأ صدره المعتل بدخانها المخدر ثم ينفثه سحابا خانقا يغمر جوانب الغرفة ..

وأمام إلحاح سعاله الخافت المتقطع ، ورذاذ الدم الذى يتطاير من بين شفتيه ، يشعر الفنان بالاختناق .. يذوب فى مستنقع الصمت والوحدة .. يهرب من مرسمه



«رأس فتاة» لوحة للفنان «موديليانى»

فى منتصف الليل ، يترنح فى طرقات باريس وأزقتها الضيقة ، يصرخ كذئب مسعور .. يطرق أبواب أصدقائه ، يوقظهم .. ينهار على أقرب مقعد .. يطلب ديوان شاعره المفضل «فرانسوا فييون» .. يقرأ أبياتا من شعره بصوت مرتفع ، يشفعها بأبيات من «الكوميديا الآلهية» باللغة الايطالية .. يوقظ الجيران ، فيحتجون .. يدقون الجدران والأسقف بأيديهم ، ويصيحون : «اسكت يا «مودى» .. نريد أن ننام !»

يعود إلى الألوان يلون بها ألمه .. لقد ضاق ذرعا بصناعة التماثيل .. يذيب الشعر فى خطوطه وألوانه ولمساته .. يسكبه فوق لوحاته التى كانت صدى لأشعار «بودلير» و «مالارمى» و «رامبو» .. وكان يحفظ أشعارهم عن ظهر قلب .

وعلى غرار الفنان الإفريقى ، كان يترك نفسه طليقة من أى قيد .. يستسلم لانفعالاته تاركا لها إملاء لغة الشكل الذى تتحدث به بطلاقة .

* * *

● وفى باريس ، تلتقى أقدار الناس .. ويلتقى «موديليانى» بالفنان «سوتين» ، وتتوثق العلاقة بينهما بدرجة أنهما كانا يتقاسمان مرسمهما ، والفرنكات القليلة التى تتسلل إلى جيوبهما ..

وفى باريس «يتعرف» على «ليوبولد سوبرفسكى» .. شاعر فقير مهاجر من بولندا ، يكسب قوته مما يعود عليه من شراء وبيع الكتب القديمة ، ويشترى بما يقتصده من دخله الصغير بعض أعمال الفنانين الناشئين ..

يصبح «سوبرفسكى» زبونا لـ «موديليانى» .. يشترى بعض أعماله ، ثم يصبح

فيما بعد وكيله ، ومتعهده الوحيد لبيع لوحاته.. يقيم له المعارض ، ويعمل على تسويق لوحاته بفرنكات قليلة .. و «موديلياني» لا يطالب بأكثر من ثمن السائل الأحمر والدخان الأزرق ، اللذين يذهبان بعقله ، وينسيانه آلام دائه اللعين ..

وفنان فى مثل رقة «موديلياني» وشاعريته ، لا يمكن أن يعيش بغير حب .. يجد فى قلب «جين هيبوترن» مأوى يهيىء له بعض الدفء .

وفى شقة صغيرة ، يعيش معها عيشة الأزواج ، لينعما بطفلتهما ، وببعض الشهرة التى بدأت تضىء له طريقه .

* * *

● **كان** يسابق عمره القصير.. كان يقول : «أتمنى أن أحيا حياة قصيرة ، بشرط أن تكون حافلة» ..

المرض يطرق بابه بعنف .. تزداد حدة السعال .. يتلون بصاقه باللون الأحمر القانى . يحزن عليه صديقه الحميم ووكيله «ليوبولد» . ويدرك الفنان قلقه عليه ، فيقول له : «لا تقلق يا صديقى .. أوصيك باقتناء أعمال «سوتين» من بعدى .. انه عبقرية سوف يكتب لها المجد والشهرة» ..

يجمع له صديقاه بعض المال ، ويرسلانه إلى «نيس» للاستشفاء .. ولكنه يعود أسوأ حالا من ذى قبل .

وفى باريس ، يحملونه إلى المستشفى وهو فى شبه غيبوبة .. وفى الطريق يهذى ببضع عبارات ، أوضحها : «إيطاليا .. إيطاليا .. يا وطنى الحبيب .»

وفى اليوم التالى ، يحملون إلى «جين» نبأ وفاته .. تهرول إلى المستشفى ، تحمل

جنينا فى أحشائها عمره تسعة أشهر .. تلقى نظرة أخيرة على جثمانه الراقد فى قاعة الموتى .. ترتمى عليه وتغمر وجهه بالقبلات .. يحاول الأطباء منعها فلا يستطيعون .. ينتزعونها عن الجثة الهامدة فوق الرخام انتزاعا .. تجرى إلى منزلها تمزقها الفجيعة ، لا تستطيع الصمود .. تلقى بنفسها من سطح المنزل .. تتناثر أشلاؤها فوق الأرض !

* * *

خمسة ملايين ونصف مليون دولار
ثمـن لوحـة واحـدة

● **فى شهر** نوفمبر من سنة ١٩٧١ ، ظهرت فى الأسواق فجأه لوحة نادرة للفنان الأسبانى الكبير «فيلاسكس» (١٥٩٩ - ١٦٦٠) - عبارة عن صورة نصفية لمساعده الأسمر «خوان دى برانجا» فتكهرب الجو ، وأصيب الوسط الفنى بنوبة هستيرية حادة ..

وتحدد يوم البيع فى قاعة «كريستى» الشهيرة للمزادات .. وازدحمت القاعة بالتجار والسماسرة ومندوبى المتاحف وهواة التحف .. وفى هدوء مصطنع ، بدأ السباق الرهيب بين الأرقام ، فكانت تقفز على الشفاه فى تصاعد محموم .. ومطرقة الدلاّل معلقة فى الهواء ، فى انتظار الرقم اللاهث الذى يحسم المعركة .. وصاح أحد الحاضرين فى حزم وثقة : «٥ ملايين و ٥٤٤ ألف دولار» .. لم يعلق أحد . وساد المكان صمت عميق .. وتشبثت الأنظار بطرف المطرقة ، وهى تهوى فوق المنصة معلنة انتهاء التسابق ، ورسو المزاد على تاجر التحف الكبير «ولدنستين» .

واشرأبت الأعناق ناحية التاجر المحظوظ ، الذى لم يعلق بغير قوله : «كان جدى الكبير عاشقا لهذه اللوحة .. وقد أوصى بأن نحصل عليها بأى ثمن !»

* * *

● **ولقد** كشف متحف المتروبوليتان - بعد بضعة أشهر - النقاب عن سر هذه التمثيلية العجيبة ، التى أحكم تمثيلها ببراعة .. عندما أعلن أن أغلى لوحة بيعت

فى تاريخ المزادات ، أصبحت ملكا للمتحف .. وإذا «ولدنستين» لم يكن إلا مندوبا ، مكلفا من قبل المتحف لينزل المزاد باسمه .. أو بمعنى أدق ، كان ستارا يتستر وراءه المتحف ، حتى لا يرتفع ثمن اللوحة إلى رقم جنونى ، تحت تأثير حمى التنافس والمضاربة !

ويضيف «توماس هوفنج» ـ مدير المتحف ـ بأن ثمن اللوحة أخذ من مبلغ تبرع به رجل الأعمال الثرى «إسحق فليتشر» سنة ١٩١٧ ، لتزويد المتحف بالجديد من المقتنيات .

● وبقيت اللوحة خمسة أشهر ـ بعد ذلك ـ مختفية عن الأنظار ، فى إحدى الغرف الخلفية بمتجر «ولدنستين» فى «منهاتن» .. حيث تولى ترميمها وتنظيفها رئيس مرممى متحف المتروبوليتان «هربرت فون شوننبرج» .. فقام بازالة وتنظيف طبقة «الورنيش» المعتم ، التى كانت تغطى اللوحة .. وإذا بها تنكشف عن لون غاية فى الثراء والشفافية يكسو البشرة .. وبياض ناصع يشع من الياقة المصنوعة من «الدنتيللا» التى تلتف حول العنق ، ومزيج من الرماديات الغنائية تنبثق من الخلفية التى كان يسودها اخضرار داكن قبل عملية التنظيف .. والأهم من ذلك ، أن المرمم اكتشف ـ أثناء عملية الترميم ـ أن باللوحة بعض الزوائد كانت مطوية تحت الإطار ، فأعادها إلى حالتها الأولى .

ويقول المرمم الكبير ، وهو سعيد بالتحفة النادرة .. إن هذه اللوحة تعتبر واحدة من نصف «دستة» من أروع صور الشخصيات التى يقتنيها المتحف !

* * *

نبى اللـون .. يبعث مـن جـديد

• **جلس** الشيخ ذو الثمانين ربيعا فى مقعد سيارته ، بعد أن زار قبر زوجته .. وراح ـ وهو يخترق مروج نورماندى الخضراء ـ يسترجع ذكريات شبابه مع رفيقة عمره ، وهو لا يدرى أنه سوف يلتقى بها بعد لحظات ، فى عالم غير هذا العالم ، وأن القدر سيرسل له سيارة لورى ضخمة تعترض طريقه ، وتصدمه ، وتسلبه الحياة . ليذهب حيث ترقد زوجته ..

وتكشف البطاقة الشخصية عن هوية القتيل : «ميشيل مونيه» ، ابن الفنان الكبير «كلود مونيه» ـ رائد المدرسة التأثيرية ـ ووريثه الوحيد ، الذى آلت إليه جميع لوحات أبيه بعد وفاته سنة ١٩٣٦ ، لتظل قابعة فى منزله الريفى فى «سوريل موسيل» ، بعيدة عن الأنظار ، ما يقرب من الأربعين عاما ..

ركام هائل من اللوحات النادرة ، من أروع ما أبدع الفنان «كلود مونيه» ، ومن أبدع ما اقتناه أثناء حياته من إنتاج أصدقائه وزملائه الفنانين .. ألقيت باهمال شديد تحت المقاعد والأسرة ، وتكدست كيفما اتفق فى المخازن والدواليب ، لتختفى تحت طبقات التراب وأعشاش العناكب .

* * *

• **وأغرب** ما فى الأمر ، أن جدران منزل وريث رائد التأثيرية الوحيد ، كانت عارية من لوحات أبيه .. كانت مغطاة بقرون الغزلان والتياتل والرؤوس المحنطة للدببة والنمور ، وجلود حيوانات الصيد المجلوبة من غابات أفريقيا .

لقد كان جمع هذه المحنطات هوايته المفضلة ، ينفق عليها عن سعة .. وكان

كلما احتاج إلى بعض المال لشراء المزيد منها ـ ليضيفه إلى مجموعته ـ جذب إحدى لوحات أبيه ليبيعها فى السوق .. وما من أحد يستطيع أن يقدر عدد اللوحات التى انتقصت من هذه التركة النادرة ، التى يقدر ثمن ما تبقى منها بما يقرب من عشرة ملايين من الدولارات .

الشىء الوحيد الذى ظل «ميشيل مونيه» ملتزما به حتى آخر أيامه ، هو عدم أيلولة هذه المجموعة إلى الحكومة الفرنسية حسب رغبة أبيه ، الذى لم يغتفر لمتحف «اللوفر» تجاهل عبقريته أثناء حياته !

* * *

● وفى أواسط عام ١٩٧١ ، قفز اسم متحف صغير مغمور إلى دائرة الضوء فجأة .. إذ بدأ اسمه يبرز فى مقالات كبار النقاد على صفحات الجرائد والمجلات .

المتحف اسمه «مارمو تون» ، ويقع بالقرب من غابة «بولونى» ، فى ضواحى باريس .. ولا يزيد عدد من يرتاده من الزوار ـ منذ إنشائه سنة ١٩٣٤ ـ عن ثلاثين زائرا فى الشهر ، يحضرون لمشاهدة بعض الفنون التطبيقية من قطع الخزف والزجاج المعشق والأثاث النابليونى الطراز ..

وعبثا نحاول أن نعثر على اسم هذا المتحف المجهول فى دليل المتاحف .. ومن العبث التفكير فى زيارته فى أى وقت ، إذ أنه لا يفتح أبوابه إلا مرتين بعد ظهر كل أسبوع .. كما أنه يظل مغلقا لمدة شهرين متتاليين فى موسم الصيف !

لم تكن هذه المجموعة الفقيرة التى يحتويها المتحف سبب شهرته المفاجئة ، إنما أذكت شهرته تلك المجموعة التى تركها وريث «كلود مونيه» المقتول .. والتى عرضت لأول مرة فى قاعة تحت الأرض فى حديقة المتحف !

لقد ضمت هذه المجموعة ١٣٠ لوحة ، من بينها لوحات لأستاذى «كلود مونيه» : «ديلاكروا» ، و«بودان» ، ولزملائه وأصدقائه من الفنانين التأثيريين .. إلى جانب صورة رائعة ، رسمها له صديقه «رينوار» عندما كان عمره اثنين وثلاثين عاما .

* * *

● **ولكن** أهم ما فى هذه المجموعة النادرة ، هى لوحات «مونيه» نفسه ، التى تبلغ ٦٥ لوحة زيتيه ، وأربع لوحات بالطباشير الملون .. تبسط أمام المشاهد مختلف مراحل تطور الفنان منذ عام ١٨٧٠ ..

لقد كان «مونيه» أكثر الفنانين التأثيريين تأثيرية .. فلقد طرح ـ منذ سبعين عاما مضت ـ خبرة غاية فى الثراء والخصوبة للجيل اللاحق ، حتى أنه من الممكن أن يقال إنه ما من أحد ممن لحقه من الفنانين التشكيليين لم يتأثر برؤيته للطبيعة ، وبفهمه العميق للضوء ، وبتجريده المرهف للون .. فقد كان حتى آخر لحظة يصر على أن يغترف الضوء من مصدره المباشر .. اللوحة تبتدىء وتنتهى فى نفس المكان والزمان .. حتى لا تفقد صلتها بآنية اللحظة ، وحتى تلحق بمهرجان الضوء الهارب ، الذى يتراقص على أنغام قيثارة قوس قزح . فالحقيقة ـ حسب رأيه ـ تكمن فى الزمان وليست فى المكان ..

ويشاء القدر أن يجف ماء العين التى كان لا يرويها سوى الضوء واللون .. وأن يغلق منافذها مرض «الكتاركت» اللعين . ويموت شيخ التأثيريين عن ٨٦ عامًا . تحت ضغط بالغ القسوة ، تبدو مرارته فى الكلمات التى كتبها إلى صديقه

«كليمنصو» ، رئيس الوزراء السابق : لقد حطمتنى الشيخوخة والهموم .. ولم تكن حياتى سوى سلسلة من السقوط .. وكل ما تبقى لى هو تحطيم لوحاتى قبل أن أختفى من الوجود !» !

* * *

شارب فى وجه الجيوكوندة !

● **طفحت** شوارع لندن وباريس وشيكاغو بشباب «الهيبيز»، بأشكالهم البشعة وهيئاتهم المنفرة، كما يطفح صندوق القمامة بالخرق البالية التى تنبعث منها رائحة العفن .. ولم تعد هذه العواصم تستطيع أن تتفاخر بنظافة شوارعها وأناقة ميادينها، ما بقيت هذه الكتل البشرية تتسكع فى طرقاتها، وتفترش الأرصفة بشكل ينافى الحياء والذوق ..

وصيحة المجتمع المتحضر يعلنها شباب متمرد على جميع القيم المتعارف عليها بطريقته الخاصة .. لا ليلفت إليه الأنظار، بل ليعبر بصدق عن إحساس عميق بالضياع، وبأنه أصبح بالفعل كومة من قمامة فى قاع «مزبلة» الزمن ! !

وفى صوت مكتوم كالتثاؤب، يسألك وهو يحتضن فتاته بلا حياء، من وراء سحابة من الدخان الأزرق، يخفى بين طياتها قلقه ومخاوفه ويأسه :

«لماذا نساق كالأغنام لنحارب فى ڤييتنام، وندفع دفعا لتلطخ أيدينا بدماء الأبرياء ؟.. لماذا نتحمل وزر أجدادنا وندفع من دمائنا وأرواحنا ضريبة أخطاء لم نرتكبها ؟.. لماذا يغرسون فى قلوبنا بذور الكراهية لإخوان لنا فى الإنسانية، كل ذنبهم أن لهم بشرة تختلف عن لون بشرتنا ؟»

وبهذا السيل من «اللماذات» يواجه شباب «الهيبيز» مجتمعهم فى سخط جرىء واحتجاج صامت، معلنين عدم انتسابهم إلى عالم لم يشاركوا فى صنعه .. وبهذه السلبية يعلنون الحرب على أى شىء يقيد حريتهم المطلقة فى تحديد مصيرهم، أو يفصلهم عن الإنسانية كأسرة واحدة، والأرض كوطن للجميع !

● **ومنذ** ستين عاما ، بل أكثر ، وقف الشباب نفس هذا الموقف ، فوق هضاب أوروبا ، ينظرون على امتداد البصر إلى آخر سحابة من الدخان ، وهى تنقشع عن الأطلال التى دمرتها القنابل ، ويملأون رئاتهم بنسمة من ريح الشمال ، امتزجت برائحة العفن التى تنبعث من أشلاء القتلى .. وراحوا يدندنون ـ فى أكتئاب ـ بنشيد النصر ، بصوت تخنقه العبرات .

كانوا يبحثون عن الفرحة فى أعماقهم فلا يجدونها .. الراية فى يدهم ممزقة تلطخها الدماء .. والدمار من تحتهم يئن فيفسد عليهم فرحتهم بالنصر .. هل كسبوا الحرب حقا ؟.. الشواهد جميعها تقول «نعم» ، ولكن شيئا فى داخلهم كان يرفض الاعتراف بهذا الكسب ، الذى يطمس جميع ومضات تفاؤلهم .. لقد أتت الحرب العالمية الأولى على كل ما كانوا يعتزون به من مباهج الحياة .. وهدمت بمعاولها الوحشية كل صروح الحضارة التى شيدها الإنسان عبر السنين .. وانتهت الحرب تاركة وراءها ركاما من لا شىء .. وكان هذا «اللا شىء» هو المعادلة الرياضية التى استخلصها هؤلاء الشبان ـ عقب الحرب العالمية الأولى ـ فجعلوا منها شعارا يعلنون به الحرب على الحرب نفسها ! فعمدوا إلى خلق نوع من الفن «الاجتماعى» المهلهل ، يناظر ما حل بالإنسانية من خراب ودمار .. فن يتألف من النفايات والفضلات والحطام والشظايا والخرق البالية وتذاكر الترام الممزقة وقصاصات الجرائد المحترقة والألياف المتآكلة ، وغير ذلك من الأشياء التى يلقيها الانسان فى سلة المهملات .. وراحوا يؤلفون منها تكوينات ، ويقدمونها فى وقار مصطنع على أنها آيات من الفن الرفيع !

* * *

●**وفى أحد** مقاهى زيورخ - سنة ١٩٢٥ - اجتمع طائفة من الفنانين والشعراء والكتاب من مختلف الجنسيات ، ممن شردتهم الحرب .. وكان من بينهم الرومانى «كريستيان تزارا» ، والمثال الألزاسى «هانز آرب» ، والألمانى «هوجر بال» .. وراحوا يتشاورون فى الاسم الذى يطلقونه على حركتهم الجديدة ، ففتح أحدهم قاموسا ، ووضع أصبعه - كيفما اتفق - فوق إحدى صفحاته ، ليستقر فوق كلمة «دادا» .. وهى اصطلاح طفولى ، يطلقه أطفال فرنسا على لعبة الحصان الخشبى ، مثلما يعبر أطفالنا عن الجرح بكلمة «واوا» .. وهكذا حصلت التمثيلية على اسمها. ووقف «تزارا» ليعلن البيان الرسمى عن أهداف «الدادية» ، يحقر فيه الفن والعلم والفلسفة وعلم النفس !

ولم يلبث الإحساس باليأس - الذى غمر اوروبا - أن جمع نخبة من خيار الكتاب والفنانين ، كانوا يعتقدون أنهم يحاربون التدمير بتدمير مماثل !

واتخذ أسلوبهم طابع السخرية والعبث والتهكم على كل قديم ، حتى أن أحد كبار فنانيهم - ويدعى «مارسيل دوشان» - رسم صورة «الموناليزا» ، وأضاف إليها شاربين ، رغبة فى تحقير العمل الفنى الذى بلغ عند الناس منزلة التقديس ..

* * *

●**وكان** جماعة الداديين يعقدون الندوات ، ويقيمون السهرات التى تعمها الفوضى .. يلبسون فيها أغرب الأزياء ، ويرقصون رقصات جنونية ، وتقوم مجموعة من شعرائهم - فى وقت واحد - بالقاء قصائد غير مفهومة ، وأشعار بلا معنى ، وهذا نموذج من شعرهم :

«فى داخلك مصابيح مدخنة .. مستنقع عسل أزرق .. قط قابع فى ذهب

الحان الفلمنكى ، بوم بوم .. العديد من الدراجات الرملية الصفراء .. مانهاتن .. هناك طشوت مليئة بالبراز أمامك .. مباز مباز بازيا ملجا نجا جارو ..!!!)

وكان يصاحب القاء الشعر أجراس كهربائية ذات رنين مزعج ، وموسيقى صاخبة ، ويتبادلون خلالها الشتائم وقطع اللحم النيىء مع المتفرجين . ويعم الهرج والمرج الذى ينتهى عادة بتدخل رجال البوليس ..

وفى سنة ١٩٢٠ ، أقام «الداديون» معرضا فى «كولونى» ، جعلوا مدخله من باب أحد المراحيض العمومية .. وكانوا يعطون زوار المعرض فئوسا صغيرة ، لكى يضربوا بها اللوحات إذا تراءى لهم ذلك .. وفى ركن من المعرض ، جلست فتاة برداء «المناولة الأولى» ـ فى الطقوس الكنسية ـ تقرأ أشعارا فاجرة داعرة !

لم تمنع مظاهرة «الداديين» قيام حرب أكثر ضراوة من الحرب الأولى .. فهل ستحول مظاهرة «الهيبيز» دون قيام حرب نووية لا تبقى ولا تذر؟!

* * *

مراهق.. فى التسعين من عمره !

● **تمهل** الرجل وهو يطوف بى فى قاعات المتحف الصغير ـ الذى يتوسط مدينة (مالاقا) الأسبانية ـ وأشار إلى لوحة معلقة بين العديد من اللوحات ، وقال بلهجة أندلسية يتميز بها أهل الجنوب ، وابتسامة ماكرة مرسومة على شفتيه : «هل تستطيع أن تخمن لمن تكون هذه اللوحة يا سيدى !؟»

ورحت أمعن النظر فى اللوحة التى لم أر فيها ما يثير الانتباه .. رجل عجوز وزوجته ، مستغرقان فى حديث ودى هادىء ، وكأنهما يسترجعان ذكريات الشباب ، فى جو داخلى أليف تشوبه قتامة خفيفة .. كأنها سحب العمر الطويل تكثفت فى حياة الزوجين .

وسألت الرجل ، وأنا أدنو من اللوحة المرسومة بأستاذية فنانى القرن التاسع عشر : «لمن تكون هذه اللوحة يا ترى ؟.. إنها ليست من صنع فنان معروف قطعا» .

وضحك الرجل وقال : «بل هى من صنع أشهر فنان فى العالم يا سيدى» !

وفجأة صحت . بعد ما اتضح لى الاسم كاملا : «بابلو بيكاسو» .. غير معقول .. إن أسلوب بيكاسو يختلف عن هذا تماما !.. ولا يمكن أن يكون هذا العمل التقليدى من صنع بيكاسو ، الذى هز الدنيا بأفكاره المتطرفة وريشته المتمردة ، وجعل الجميع يلهثون وراء كل جديد يبتكره» !

قال الرجل فى زهو : «وسيزداد عجبك يا سيدى ، عندما تعرف أنه رسم هذه اللوحة وهو طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره !.. أليس بيكاسو رجلا عبقريا» ؟

●**وبرغم** تسليمى بعبقرية بيكاسو ، فاننى لم أكن أتصور أنه يستطيع ـ فى مثل هذه السن ـ أن ينجز عملا كهذا لا يقدر عليه إلا فنان عجوز حنكته التجربة .

عجيب هذا الرجل الذى عاش حياته بالمقلوب .. طفولته شيخوخة ، وشيخوخته طفولة عابثة ، تحطم كل ما يقع تحت يدها ، وتقذف به فى وجه العالم !..

ولقد ظل «بيكاسو» حتى بعد أن طعن فى السن ، يصنع ما لم يصنعه فنان فى التاريخ ، حتى أن اسمه صار علما على كل تقليعة تبتكر .. وأصبحت «البيكاسية» تطلق على أى تطرف فى الإغراب الفنى ..

و «بيكاسو» تركيبة عجيبة من المتناقضات .. فهو فنان ، ومفكر ، وسياسى ، وشاعر ، ومغامر ، وعاشق .. لا يؤمن بالحب الهادىء الذى يبدأ بابتسامة وينتهى بالزواج .. بل بالحب الملتهب المتفجر . فهو يحب فى سن الثمانين مثل مراهق فى سن العشرين .. بكل حماقات المراهقين !

* * *

●**وفى حياة** بيكاسو سبع نساء ، على عدد أيام الأسبوع .. وفى مقدمتهن «فرناند أوليفييه» ، التى تعرف عليها سنة ١٩٠٤ فى طرقات «باتو لافوار» ، عندما جاء إلى باريس فقيرا معدما .. وكانت متزوجة من مثال مجنون ، هجرته لتشارك «بيكاسو» سنوات كفاحه ، وتدبر له جميع شؤون منزله بفرنكين اثنين فقط فى اليوم .. وعندما بدأ الحظ يطرق باب مرسمه المتداعى ، تركه ليسكن فى شقة فاخرة فى شارع «كليشيه»..

ويبدو أن «فرناند» لم يكتب لها أن تجنى ثمار السنوات العجاف التى قضتها



«مستحمات (أفينيون)» لوحة للفنان «بيكاسو»

معه .. فتركت الشقة الفاخرة سنة ١٩١١ ، لتحل محلها «إيفا جويل» ، التى اختطفها بيكاسو من عشيقها «ماركوزى» لتعيش معه فترة .. ثم تخرج من حياته محمولة فى تابوت خشبى أسود !

ولكى يتخلص «بيكاسو» من وطأة حزنه العميق ، ألقى بكل عواطفه تحت قدمى راقصة الباليه «أولجا كوكلوف» ، التى فشلت فى ترويض بوهيميته ، وتحويله إلى بورجوازى تافه .. لقد كلفه الزواج من هذه القطة المدللة راحته وحريته .. ولم يعد يحتمل الستار المخملى الذى أسدلته على حياته لتحجبه عن الناس .. واضطربت أعصابه . وعكست لوحاته مأساة العذاب والألم .. وتوقف عن الرسم !

* * *

● **ولكن** بيكاسو لا يستطيع أن يعيش بدون حب .. فيرتمى بين أحضان «مارى تيريز والتر» ، الشقراء المتوهجة ، التى أشعلت فى قلبه جذوة الحب من جديد .. ولكن الملل لا يلبث أن يتسرب إلى قلبه ، فيبحث عن وقود جديد يلهب به عواطفه .. ويجده فى السمراء الفاتنة «دورا مار» ، التى اجتازت معه سنوات الحرب السوداء .

ثم تقتحم «فرانسواز جيلو» حياة بيكاسو سنة ١٩٤٥ .. وتقبل المغامرة بمعاشرته ثمانى سنوات ، تهرب بعدها لتطارده بمذكراتها التى تفضح بها حقيقة الأسطورة التى عاشتها عن كثب .. والتى اسمها «بيكاسو» . ثم يقرر «بيكاسو» - بعد ست زوجات وعشيقات .. وأربعة أولاد شرعيين وثلاثة غير شرعيين -

أن يستريح .. أراد أن يريح شيخوخته فى عش حبه السابع ، بين أحضان «جاكلين روك» الذكية الصبور ، التى فهمته بعمق .. والتى كانت تأمل أن تكون خاتمة مغامرات قلبه المراهق .

* * *

بيكاسو مرة أخرى !

● في الخامس والعشرين من مارس سنة ١٩٠١ ، وصل إلى باريس «بابلو .. دييجو .. فرانسيسكو .. خوان .. نيبوبورثينو .. ماريا دى لوس ريميديوس .. لبريانو دى سانتيما ترينيداد .. بيكاسو» .

ولكم تناولت صحف العالم هذا الفنان وأعماله بالكتابة المستفيضة عن حياته الأسطورة ، وعن فلسفته ، وفنه ، وثروته ، ومغامراته مع النساء .. ولقد ظل - حتى بعد تجاوزه التسعين - يضيف مزيدًا من المعلومات والطرائف إلى ما ورد في آلاف المقالات التي كتبت عنه ، والـ ٣٥٠ كتابًا التي ألفت عن حياته بمختلف لغات العالم .. وسوف يتحدث الناس عن بيكاسو العجيب الذى ظل يتمتع - برغم شيخوخته - بحيوية الشباب : ينط الحبل ، ويخرج إلى الشارع بالمايوه ، ويلبس الشورت ، وينافس الأطفال فى أكل «الآيس كريم» وتقليد مصارعة الثيران .. ويعشق الحيوانات ، ويربى الكلاب والماعز والحمام .. والبوم أيضًا !

● جاء إلى باريس فقيرًا معدمًا ، فأصبح أغنى فنان فى العالم .. إذ استطاع بريشته فقط أن يكون ثروة طائلة ، تقدر بحوالى ١٥ مليون جنيه ، وعزبة كبيرة فى (جواديلوب) فى الريف الفرنسى ، وثلاث شقق فاخرة فى باريس ! وقصرًا فى أسبانيا ، وقصرًا أثريا فى (فوفين أوج) يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر ، يحتوى على أكثر من ٤٠ غرفة وبهوا .. علاوة على ما يمتلكه من تحف ولوحات لكبار الفنانين ..

ويقف «بيكاسو» على قمة التحدى ، فى مواجهة تصفيق المعجبين وإعراض المستنكرين ، شامخًا كالطود ، مستمرًا فى فيضه الذى لا ينقطع وعطائه الذى لا يتوقف .. يقف فى مواجهة سيل الاتهامات التى تلاحقه بأنه «زير نساء» ، ودجال ، وفوضوى هدام .. وأن عروقه يجرى فيها قطرات من دماء الغجر واليهود .. !

ويقول بعض الحاقدين عليه : «ليت القابلة تركته يموت يوم ولدته أمه بين الحياة والموت» .. لولا أن ساقت المصادفة أحد أعمامه ـ وكان طبيبا ـ ليقوم بإسعافه ، قبل أن تخمد أنفاسه إلى الأبد ، وتحرم البشرية من عبقرية قلما يجود بمثلها الزمان !

* * *

● **وتتسلل** ألوان الطيف إلى حياة بيكاسو ، فتصبغ مراحل فنه باللون الأزرق ، وأخرى باللون الوردى ، وكأنها «ترمومتر» يقيس درجة حرارته صعودًا وهبوطًا ، فى رحلته مع التجربة والخلق والمعاناة .. فاللون الأزرق بدأ يتسرب إلى لوحاته عندما علم بموت صديقه «كارلوس كازاجيماس» ، الذى سافر معه إلى باريس فى مطلع شبابه ، وشاركه مرسمه العتيق فى حى مونمارتر ، ثم وقع فى حب فتاة دفعته إلى الإفراط فى الخمر .. ثم إلى الانتحار ! !

ولقد عبرت ريشة «بيكاسو» عن هذه المأساة ـ التى هزت كيانه ـ بلوحته المشهورة «مأتم وجنازة» .. كانت طريقا إلى تسرب اللون الأزرق القاتم الحزين إلى لوحات العجائز ، والمومياوات ، والجائعين والعميان ، التى تميزت بها هذه المرحلة .. كانت فلسفته التى أخذها عن «شوبنهاور» تتسم بالأسى العميق والألم

الدفين .. فكان يقول : «إن الفن ينبع من الحزن والألم» !

ويتحدث بيكاسو عن أيام الحرمان الزرقاء ، بأنه حاول ذات مرة أن يبيع إحدى لوحاته بدولار واحد ، ولكن أحدا لم يتقدم لشرائها .. فعاد إلى مرسمه تحت وابل من المطر المنهمر ، وأصيبت لوحته بالبلل والتلف .. وتدور الأيام ، وتباع نفس هذه اللوحة فى مزاد على بخمسة آلاف دولار .. ! !

* * *

● **وينساب** اللون الوردى مع سنوات الانتعاش ، ليزيل قتامة الألوان من نفسه ومن لوحاته .. ثم يلقى بكل ثقله فجأة إلى باريس فى مغامرة جريئة فى مجاهل الفنون الزنجية .. يأخذ منها فطرتها المتفجرة ، وبدائيتها الصارخة . ولا تخلو مرحلته التكعيبية ـ بعد ذلك ـ من سمات هذا الفن ، الذى تستجيب له طبيعته الثائرة ومزاجه المتوهج .. ولقد كانت لوحة «الجيرنيكا» إحدى ثمار هذه المرحلة ، التى حمل فيها حملة شعواء على النازية وما جلبته على بلاده وقراها الآمنة من خراب ودمار ..

ويقول «بيكاسو» عن دور الفن فى المعارك السياسية : «أتظنون أن الفنان مجرد إنسان له عيون فقط ، إذا كان رساما .. وله آذان فقط إذا كان موسيقيا ؟! .. إن الفنان رجل سياسى ، وليست الصور واللوحات إلا أسلحة للدفاع والهجوم على الأعداء ، فهى ليست أدوات زينة تعلق فى البيوت» !

وكان مرسمه مزارا يزوره جنود الألمان فى فترة احتلال فرنسا ، أثناء الحرب العالمية الثانية .. وحدث أن زاره ذات مرة بعض الجنود ، فرأوا فى مرسمه نسخا من لوحة «الجيرنيكا» فسألوه :

«أنت الذى صنعت هذا ؟» .. فأجابهم : «بل أنتم الذين صنعتموه» !! ..

ويقولون عن بيكاسو أن العبقرية ولدت معه ، وأنه كان يرسم قبل أن يتعلم المشى .. وتشير والدته إلى مواهبه المتعددة ـ فى خطاب لها ـ عندما سمعت أنه يقوم بتأليف بعض المسرحيات : «يقولون أنك تكتب .. وأنا أعتقد أن كل شىء ممكن بالنسبة لك .. حتى إنه لو قيل لى ذات يوم أنك تؤم الناس فى الصلاة ، لصدقت ما يقولون» !

إن أمه واحدة من القلائل الذين اعترفوا بفنه وعبقريته .. أما الباقون فيقول عنهم بيكاسو .. إنهم سيفهمون فنه بعد خمسين سنة !!

* * *

معركة الزعامة بين ماتيس و بيكاسو

● **كانت** «الحوشية» ـ سنة ١٩٠٧ ـ تتصدر الحركة الفنية فى باريس والعالم الغربى كله .. ولكن مع ازدياد اهتمام الفنانين والنقاد بفن «سيزان» ، ظهرت نزعة جديدة يمكن أن نطلق عليها «السيزانية» ، فما لبثت أن التف حولها عدد كبير من الفنانين الشبان ، ومن بينهم «ماتيس» و «بيكاسو» .

غير أن «السيزانيين» بدأوا ينقسمون على أنفسهم .. فبينما كان «ماتيس» يتزعم فريق المحافظين ، كان «بيكاسو» يتزعم حركة مقابلة تتسم بالتطرف ، وذلك باستلهامه الفنون الأفريقية وأخذه منها مثلما يأخذ من فن «سيزان».. ولقد ساعدته صيحات العلم الحديث على ابتكار أسلوبه ، الذى أطلق عليه «التكعيبية» ، والذى أصبح أكبر حدث فنى فى ذلك الوقت ..

وهكذا أوجدت الظروف رائدين متنافسين ، يقف كل منهما على الطرف المقابل للآخر .. أحدهما رجل قانون هجر مهنة المحاماة ـ واحترف التصوير .. والآخر أسبانى لاجىء ، قضى حياته كلها فى باريس ، ليشغل العالم بمغامراته وبما يضيفه كل يوم إلى فنه من جديد !

* * *

● **ولا يستطيع** أحد أن ينكر تأثير هذين الفنانين على تيار الفكر المعاصر ، بل على مظهر الحضارة فى النصف الأول من هذا القرن حتى يومنا هذا .. فقد ترك كل

منهما بصماته الواضحة على الحركة الفنية المعاصرة ، وكان لكل منهما أتباع ومريدون ، وخاصة «ماتيس» ، الذى كان تأثيره قويا على جميع من عرفوه ، حتى زملائه أثناء فترة الدراسة ، التى قضاها متنقلا بين مراسم «جوستاف موروه» و «كورمون» و «جوليسان» و «كاريير» .. حيث كان يتميز بينهم بشخصية فذة ، وقدرة على الإقناع ، وموهبة نقدية خارقة .. ولقد بلغت قدرته على الاقناع أنه استطاع بوقاره وبلباقته أن يحطم عناد أسرة زميله «ديران» البرجوازية ، التى كانت ترفض بعناد أن يسلك ابنهم طريق الفن .. فما لبث أن أصبح من كبار فنانى عصره ..

ويعود كثير من الفضل فى إلقاء الضوء على فن «ماتيس» و «بيكاسو» إلى الأخوين الأمريكيين «ليوستين» وأخته «جرترود» ، وكانا يقيمان ويدرسان الفن فى باريس .. ويبدو أنهما كانا يتمتعان بثراء كبير ، حتى أنهما كانا يقتنيان أعمالا كثيرة من الفنانين الطليعيين ، كونا منها مجموعة من أندر المجموعات الفنية الخاصة ..

وعندما عرض «ماتيس» لوحته المعروفة «السيدة ذات القبعة» ـ التى هوجمت بقسوة من الجمهور والنقاد ـ كان الأمريكى «ليوستين» أكثر تقديرا لها ، فاشتراها وعلقها إلى جوار لوحات «رينوار» و «سيزان» فى منزله ـ بشارع الزهور ـ الذى كان يتردد عليه كل من «ماتيس» و «بيكاسو» ، بعد أن توطدت العلاقة بينهما فى وقت لاحق .

* * *

● **وظلت** أسرة «جرترود» ترعى «ماتيس» ماديا وأدبيا ، وتشترى معظم لوحاته ، التى ازدحمت بها جدران المنزل .. غير أن اهتمام الأسرة ما لبث أن بدأ يتحول نحو «بيكاسو» ، فقد بدأ اسمه يلمع فى الأفق ، وخاصة بعد أن عرض

لوحته المسماة «آنسات آفنيون» . التى فتحت الطريق إلى «التكعيبية».. والتى وجدا فيها إيقاعا جديدا يفتقر إليه فن «ماتيس»..

ويتفاخر «بيكاسو» على منافسه ـ الذى كان يكبره باثنى عشر عاما ـ بأنه كان يزاول التصوير ويعرض لوحاته قبل أن يعرف «ماتيس» ما هو التصوير بزمن طويل ، وأنه برغم صغر سنه كان يكبره فى الفن . إذ أقام أول معرض له وهو لايزال صبيا ـ سنة ١٨٩١ ـ فى مدخل حانوت صانع للمظلات فى مدينة كورونا بأسبانيا .. فى الوقت الذى كان فيه «ماتيس» لايزال يرسم الطبيعة الصامتة . كهاو بسيط ..

ولعل من عجيب الصدف أن يدخل كلا الفنانين مرحلتهما الزرقاء فى عام واحد تقريبا .. إذ دخل «بيكاسو» مرحلته الزرقاء فى نفس العام الذى رسم فيه ماتيس «العرايا الزرق».. ومن عجيب الصدف أيضا أن يعود «ماتيس» إلى مسقط رأسه يائسا سنة ١٩٠٢ . فى نفس السنة التى ترك فيها «بيكاسو» باريس عائدا إلى برشلونة ، قبل أن يعود لباريس نهائيا سنة ١٩٠٤ ..

ويبين «ليوستين» التناقض الشديد بين شخصية كل من الفنانين . فى كتابه الذى كتبه بعنوان : «التذوق» . يصف فيه «ماتيس» ـ ذا اللحية الصغيرة ـ بالوقار والأناقة والاتزان وطلاوة الحديث . وحسن المعشر وحب النظام ، حتى أن كل شىء فى غرفته كان يستقر فى مكانه . كأنما لم تمسه يد .. بينما يقول عن «بيكاسو» أنه حاد المزاج . فوضوى . بوهيمى . منطو على نفسه . محب للعزلة . والانفراد بنشاطه الفنى . لا يشارك غيره من الفنانين فى عرض أعمالهم ..

ويقول «ماتيس» موضحا فلسفته التصويرية : «أريد أن أصنع فنا يتسم بالنقاء والصفاء ـ يكون كالمهدىء لرجل الأعمال ورجل الفكر على السواء . وكذلك

للكاتب والأديب .. أريد أن أصنع شيئا أشبه بالمقعد الوثير ، يشعر عليه المتعب بالراحة بعد يوم ملىء بالعمل الشاق».

ويقول «بيكاسو» للذين يستفسرون عن غموض فنه : «لست أدرى لماذا يريد الناس دائما أن يفهموا الفن .. بينما نحن لا نسأل الطير عما تعنيه أغانيه ؟.. ألسنا نحب الليل . والأزهار . وكل ما حولنا ، دون أن نحاول أن نجد لهذا الإعجاب معنى ؟».

* * *

بيكاسو فى كتب الأطفال

● **مئات** الكتب كتبت عن «بيكاسو» وآلاف المقالات امتلأت بها الصحف والمجلات ، تحكى عن مغامراته النسائية ، وزوجاته ، وعشيقاته ، وأولاده الشرعيين وغير الشرعيين .. وممتلكاته التى لا حصر لها : من القصور والضياع والأموال المودعة فى البنوك .. وطاقته الخرافية التى ظلت تجعله يقفز ويرقص ويرسم ـ وهو فى التسعين ـ مثل شاب فى سن العشرين ..

وانصبت اللعنات من جميع أنحاء الدنيا على رأس الرجل الذى اعتبروه مسئولا عن إفساد ذوق القرن العشرين ، وتحطيم القيم الجمالية التى أدت بالفن إلى هذه الانحرافات التى تسللت إلى كل الفنون .

ومات الرجل ، وبقيت الأسطورة المحيرة بلا جواب .. هل كان حقيقة رجلا هداما ، أرسله الشيطان ليدمر كل ما ورثته الإنسانية من قيم ، أم كان نبيًا مصلحًا أرسلته السماء ليجدد البناء المنهار ويصب فى الشرايين المتهالكة دماء جديدة تعيد إليها نضارتها وحيويتها ؟!

* * *

● **لقد** تسللت أسطورة «بيكاسو» إلى دنيا الأطفال أيضًا .. فمن بين مئات الكتب التى كتبت عنه ، كتاب ألف خصيصًا للأطفال ، لتعريفهم بحياة «بيكاسو» ، وفن «بيكاسو» ، وكأنه أحد أبطال التاريخ الذين حولوا مجرى الحياة ومسار الإنسانية ..

والكتاب ليس من هذه الكتب الساذجة . التى يغذون بها خيال الأطفال . بل هو كتاب قيم جاد من القطع الكبير ملىء باللوحات الملونة . مثل الكتب الفاخرة الفنية التى يشتهى الفنانون أن تكون فى مكتباتهم الخاصة ..

ولا شك فى أن هناك شيئا ما يربط دنيا «بيكاسو» بدنيا الأطفال .. وهو الذى كان يقول : «كنت فى طفولتى أرسم مثل كبار الرسامين .. وانتهيت فى شيخوختى بأن أرسم مثل الأطفال !»

كان فضوله الطفولى هو الذى يدفعه إلى الانطلاق الأهوج وراء نزواته بحثاً عن المجهول . دون أن يفكر فى العواقب . كطفل يتسلق شجرة التوت . دون التفكير فى درجة تحمل أغصانها الرقيقة لثقل جسمه !!

* * *

● **إن** براءة الطفولة هى الخميرة التى تكسب الفن مذاقه وحيويته ونقاءه .. ولذا قيل «طوبى للأطفال ، فإنهم يرثون الجنة» ! .. وحياة الأطفال هى الجنة بعينها ، لأنهم لا يعرفون معنى الشر ، ولا معنى كلمة ردىء أو قبيح .. كل شىء فى نظر الطفل جميل . ومباح .. مثل طعام الجنة .. والخطأ والصواب من صنع العقل والمجتمع . وكلمتا «حرام» و «ممنوع» ليس لهما وجود فى قاموس الطفل . فهما كلمتان لا تعرفهما ولا تعترف بهما الفطرة !

فلا غرابة إذن فى أن يستجيب الأطفال إلى فن «بيكاسو» الطفل العجوز .. لأنه أقرب الفنون إلى قلوبهم وطبيعتهم .. ولا غرابة فى أن تصل كل كلمة فى هذا الكتاب إلى عقولهم المتفتحة ، فيتذوقون ما لم يستطع الكبار تذوقه ، ويهضمون ما تعذر أمعاؤهم الغليظة هضمه !

* * *

● **وببساطة** شديدة ، وبلغة غاية فى السهولة ، يذكر الكاتب والفنان والشاعر والناقد «إرنست رايوف» .. يذكر تاريخ ميلاد «بيكاسو» ، وموطنه ، واسمى والده ووالدته ، ثم يصفه بقوله : «له عينان تريان كل شيء .. وقلب يحب كل ما فى الحياة والطبيعة .. وله يدان تستطيعان إبداع أروع الأعمال ..» !

● «وهذا نموذج لشرح لوحة الأمومة ، التى صورها بيكاسو فى إحدى مراحله المتعددة :

«لقد صور «بيكاسو» موضوع الأمومة فى كثير من لوحاته . هذه ؟؟ إحدى لوحاته التى أنجزها فى المرحلة الكلاسيكية ، التى بدأت حوالى ١٩٢١ ، وانتهت ١٩٢٧ .. فالأم وطفلها يجلسان فوق المقعد كأنهما نحتا من الرخام .. الألوان غنية ودافئة .. إن أشكال بيكاسو عندما يتناولها بأسلوبه الكلاسيكى تبدو ناعمة ومكورة ومنتفخة . بينما تبدو حين يتناولها بأسلوبه التكعيبى جامدة وصلبة ومضلعة .. ويبدو أن هذه المرحلة الكلاسيكية نتيجة لتأثره بجمال ووقار الفن اليونانى والرومانى القديم ، عندما رآه فى إحدى زياراته لايطاليا ..» .

ويختم المؤلف كتابه بقوله : «إن بيكاسو ـ المؤرخ ، المثال ، الأب ، الشاعر ، العالم ، الزوج ـ واحد من أعظم الفنانين الذى عرفهم العالم على مر العصور ..» !!

الجيرنيـــكا .. لمـاذا ؟

عندما تعرضت قرية « جيرنيكا » الأسبانية للقصف النازى إبان الحرب الأهلية الأسبانية كان هذا الحديث وحده كفيلا بأن يهز كيان الفنان « بيكاسو » من الأعماق .

و « بيكاسو » فنان من طراز نادر .. فنان متفجر تجرى فى عروقه الدماء الأسبانية الحارة .. بل إننا نستطيع أن نقول إنه بركان ثائر يقذف الحمم فيدمر كل ما يحيط به من حواجز التقاليد التى تحجب نور الفجر المتجدد من أن يغمر وجه الأرض ..

وكان خلاف « بيكاسو » مع الفاشية هو الذى دفعه إلى أن يتخذ من باريس منفى اختياريًا له . وفى باريس ذاق مرارة الحرمان ، كما عرف حلاوة المجد والشهرة .. وفى باريس عاش وتألق .. ولكن قلبه كان هناك يهتز لأى شىء يحدث وراء الحدود ..

ولما بلغته أنباء القصف الوحشى للقرية الآمنة ، كان رد الفعل المباشر عنيفًا وهائلاً ..

وكان أبسط أنواع الاحتجاج أن يمسك « بيكاسو» القلم ويطلق صرخات الاحتجاج فى مقالات ملتهبة أو خطب يلقيها فى المجامع الدولية ليحرك بها ضمير العالم ..

ولكن فرشاة «بيكاسو» كانت هى الأداة الطبيعية وصاحبة الحق الشرعى التى تستطيع أن تطرح القضية بكل صدق وعمق .. بل بكل عنف .. وكانت لحظة الانفعال هى الاصبع الذى ضغط على الزناد لكى تنطلق صيحة الاحتجاج التى تصم الآذان ، فولدت لوحة «الجيرنيكا» التى خلدها التاريخ كأعظم عمل فنى سياسى فى العصر الحديث .

وهنا .. وفى هذه اللحظة بالذات يحسن بنا أن نتوقف لحظة ونتساءل .. أين كان موقع «بيكاسو» آنذاك من مشوار عمره الطويل ؟؟ «فبيكاسو» الذى يتحرك طولا وعرضًا وفى كل اتجاه لم يتوقف عند مرحلة معينة ، بل هناك مراحل كثيرة مر عليها قطاره السريع بدءا من طفولته تحت السماء الأسبانية وانتهاء بواقعه اللامع على ضفاف السين ، مرورًا بالكلاسيكية والواقعية والوردية والزرقاء ، والتعبيرية التكعيبية والتجريدية .. وغير ذلك .

ولكن الفنان الخلاق الذى فوضته الطبيعة لكى يعيد صياغتها كيف تشاء عبقريته .. وكانت التعبيرية التكعيبية ـ طابعه فى تلك الفترة ـ هى المنطلق الطبيعى الذى انطلق منه لكى يصوغ صيحته المدوية .وهنا نعود فنتساءل : لو كان هذا الحادث قد سبق الزمن بعدة سنوات ، أو لو كان قد تأخر عن هذه الفترة لعدة سنوات . فهل كانت «الجيرنيكا» تطلع علينا بنفس الصورة التى خرجت بها ؟؟ طبعًا لا .. !!

إن الانفعال يرفض الخضوع لقيود التعقل والتروى والحكمة .. ومع ذلك فهو مرتبط إلى حد كبير من حيث الشكل والحدة بالمزاج العام كما ذكرنا ... فانفعال الحليم يختلف عن انفعال الأهوج .. وانفعال المثقف يختلف عن انفعال السوقى ، وانفعال البالغ يختلف عن انفعال الطفل .. ولقد كان انفعال «بيكاسو» انفعالاً مثقفًا يرتكز على قاعدة تجريبية وماض طويل مصقول . هذا الماضى بكل رواسبه هو الذى صنع وشكل «بيكاسو» عصره وهو بالتالى الذى صاغ «الجيرنيكا» بهذه الصيغة التى تميزت بها . فمن الخطأ إذن أن نقول إن «الجيرنيكا» نموذج فريد ليس له نظير فى حياة «بيكاسو» على الأقل .. وليس له قبل ولا بعد .. وأنها لا تتبع أى مدرسة ولا تنبع من أى اتجاه .. يكفى أن نقول أنها نبعت من أعماق «بيكاسو» الثلاثينات ..

وإذا جاز لنا أن نشبه أعماق «بيكاسو» بالنبع ، فطبيعة النبع أنه عندما يتدفق يحمل معه رواسب أعماقه .. وفى لوحة «الجيرنيكا» نلتقى ببعض هذه الرواسب على هيئة رمزيات عقلانية أو لاشعورية متناثرة فى فوضوية مقصودة أثارها الحدث المفجع . وكانت مختزنة فى سراديب ذاكرته ، مثل الحصان الصارخ والثور والاشلاء والمصباح والوجوه المتشنجة والخنجر وغير ذلك من أصداء بيئية كامنة ترجع إلى أيام طفولته ، وربما كان العقل الباطن مصدر هذه الرمزيات . ومع ذلك فهى الرموز التى اسعفته .

فلو كان العدوان قد حدث على قرية «جيرنيكا» أثناء المرحلة الزرقاء مثلاً لاختلف الأمر تماماً . ولتقمصت اللوحة العتيدة ثوباً آخر ، أما المضمون فيأتى من الخارج . وأما ردود الأفعال ، فتختلف من شخص لآخر مثلما تختلف المواد الموصلة للحرارة . أو مثلما تختلف درجة الاشتعال من مادة لأخرى .

* * *

باقة ورد.. فى ذكرى أستاذ جليل

● كنا من الشباب المغامر.. قلة من الطلبة دفعهم حب الفن الى اختيار الطريق الصعب، فراحوا يطرقون أبواب معهد حديث العهد، مجهول المستقبل، يفتح أبوابه لأول مرة لجيل جديد من عشاق الفنون الجميلة..

كانت الأمور ميسرة: دراسة مجانية، أدوات تصرف بسخاء.. لم يكن هناك ما نشكو منه سوى أساتذتنا الأجانب.. كانوا فنانين ممتازين من كل الأجناس: إيطاليين، وفرنسيين، وسويديين.. ومع ذلك كان الظمأ يقتلنا.. كنا كالمنقبين عن الذهب فى منجم انهارت جميع منافذه.. كانت حاجتنا إلى قطرة الماء ونسمة الهواء، أقوى من حاجتنا إلى أكداس الذهب.. كنا تواقين إلى المعرفة!

وكان بيننا وبين أساتذتنا الأجانب سد غليظ من الجهل باللغة، والكبرياء، والصلف، فاستحال بيننا اللقاء، وازداد شعورنا بالعزلة.. وبالظمأ.. وفجأة رأينا بيننا الفنان «أحمد صبرى»، الذى كان قد عاد توا من بعثته.. كتلة من وطنية وحماس.. مصرى يتكلم لغتنا.. نفهمه ويفهمنا.. يعرف احتياجاتنا.. يحس بتطلعاتنا.. فقد جرب هو الآخر الظمأ ذات يوم!

كنا نحبه رغم قسوته.. نطرب لحدته، ولا نشكو من نقده اللاذع المرير، ولا نتململ من لهجته التى كانت تطعن غرور شبابنا بعنف.. فقد كان عنيفا فى نقده، متطرفا فى حماسته لفنه.. لا يعرف المجاملة ولا يفرط فى مسئوليته كمعلم.. ولا فى كرامته كأستاذ وفنان.

* * *

● **وجاوزت** علاقتنا حدود الأستاذية والتلمذة .. كنا نزوره فى داره ، نقضى ساعات طوالا فى مرسمه ، الذى كان فى نظرنا محرابا للتعبد والتأمل .. نستمع إلى حديثه الهامس الجاد ، وكأننا نصغى إلى نبى يبشر بتعاليم السماء .

وكان يخصنى بعناية مميزة .. ربما لتقارب فى الذوق ، أو لتشابه فى المزاج ، فقد كان هو الآخر يعشق الموسيقى والغناء .. كان رخيم الصوت .. وكثيرا ما تعقب آثار كبار المطربين فى طفولته ، يرتاد حفلاتهم ، ويسهر معهم حتى الصباح .. حتى حفظ الكثير من أدوارهم وموشحاتهم .

وكنت أجلس أمامه محتضنا العود ، أعزف عليه وهو يدندن بصوت خافت ، مستعيدا ذكريات صباه وما تبقى فى ذاكرته من أغانى «عبده الحامولى» ، و«محمد عثمان» و«يوسف المنيلاوى» ، فيمتزج صوته بلمسات فرشاته وبريق ألوانه ، فى توافق شجى جميل .. وهكذا عاصرت مولد إحدى روائعه لحظة بلحظة .. رأيتها تنمو تحت لمسات ريشته الحانية ، فلم أشعر بالوقت وهو يمضى ، ولا بالزمن الطويل الذى استغرقته لوحة «العازف» التى قدر لها الخلود .

كانت فرصة نادرة لمعرفة المزيد من دقائق حياته : عذاب طفولته اليتيمة ، فشله فى الدراسة فى مطلع حياته ، ضراوة شبابه المحروم من المال والعطف والحب .. النمل يشاركه طعامه .. «البطاطا» تصبح غذاءه الوحيد ، إذ عجزت دريهماته القليلة عن أن تجد بديلا عنها يسكت صراخ أمعائه .. حياته فى باريس .. معاناته من زوجتيه الفرنسيتين السابقتين ، وكيف أحالتا حياته إلى سلسلة من العذاب .. علاقته بأستاذه العملاق «فوجرا» الذى تعلم منه التواضع وحسن الاستماع .. فلما ذهب لحضور حفل افتتاح صالون باريس ـ الذى كان يعرض فيه لوحة (الراهبة) ـ استمع خلسة إلى بعض النقاد يبدون إعجابهم باللوحة ، باستثناء خلفيتها الداكنة ، التى كانوا يفضلونها بيضاء ، فاقتنع بالملاحظة ، ولم يتردد

فى تغيير الخلفية واللوحة معلقة فى مكانها ، فازداد إشراقها بعد هذا التعديل ، وحصلت «الراهبة» على ميدالية الشرف الذهبية ، لتشرف صبرى كفنان ، ومصر التى أنجبت هذا الفنان .

* * *

● **كان** أحمد صبرى أستاذا لعدة أجيال .. تتلمذوا على يديه . كان رائدا للصورة الشخصية «البورتريه» ، أخذ من التأثيرية صفاء ألوانها ، ومن الكلاسيكية جمالياتها ، ومن الواقعية جديتها وأدبها ودأبها .. وتجلت براعته - بصفة خاصة - فى الرسم بالباستيل ، الذى لم يتناوله إلا قلة من فنانينا .. فكان يحيل لوحاته إلى ألحان شجية ، تتناغم فيها رقة الألوان مع حساسية اللمسات ، مع الالتزام بوقار الحركة والاحترام لمفهوم الجنس الذى يلتقط منه أسمى ما فيه .

وكان لا يؤمن بالبريق الخاطف ، ولا بعشوائية اللمسة ، ولا بالمهارة الخداعة .. بل كان يقبل على عمله بأسلوب منهجى منظم ، يمنحه كل ما يستحقه من جهد وبذل ومعاناة .. وإذا جاز لنا أن نسمى فنه «فن الصالونات» ، فلأنه يعكس سمات الأناقة والرشاقة والكياسة ، التى تتجلى بصفة خاصة فى صورة المرأة ، إذ كان يصهرها فى بوتقة مشاعره وحسه المرهف ، ويبرز أنوثتها فى غير ابتذال .

ويوازى افتتان «صبرى» بجمال المرأة ، إعجابه بالطبيعة الصامتة ، يسكب فيها مشاعره ، فينتقى أجمل ما يحتويه مرسمه من أوانى الخزف ، وأقمشة الحرير ، وباقات الزهر ، يؤلف منها «سوناتاته» البالغة الرقة ، مؤكدا ملامس الأشياء وكثافتها ، حتى نكاد نحس مذاق الفاكهة ، وعبير الأزهار ، وهفهفة الحرير ،

ورنين المعادن ، وملامسة الخزف ، وهى تسبح جميعا فى جو من الصفاء الناعم ، والشفافية النقية ..

* * *

● **وكان** أحمد صبرى شديد الحنين إلى الجو العائلى والحياة الاجتماعية .. لذلك لم يخرج إطلاقا إلى العراء ليصور الطبيعة والهواء والشمس .. بل كان مشدودا إلى مرسمه ، لا تحس ريشته بوجودها إلا فى مناخه الداخلى .. فينقل الطبيعة إلى مرسمه دون أن يخرج إليها..

كان صديقا شخصيا للعقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين ، وركنا هاما فى ندوات العقاد ، يداعب ضيوفه برسمهم .. فكان يرسم «العقاد» على هيئة زرافة .. و «عبدالرحمن صدقى» على هيئة طائر البشاروش .. أما هو ، فاختار لنفسه صورة النسناس !

وبدأ الظلام يزحف على عينيه ، ويحيل عالم النور الذى كان يغترف منه ، إلى بحر من الظلمة .. وحال ضعف بصره بينه وبين الجمال الذى كان يغذى وجدانه .. وكأنما أحست روحه أنها لا تطيق البقاء فى عالم بلا صور ولا ألوان ، فآثرت الرحيل ، بعد أن تركت بصماتها فى سجل الخالدين !

* * *

مرفوضون خلدهم التاريخ

● معركة اختلاف الرأى فى الفن قائمة منذ الأزل . فالذى يراه زيد عملاً رائعًا ، قد يراه عمرو عملا هابطا لا يستحق الأدوات التى صنعت به .

وينتج عن ذلك أن يطرد من ساحة الإبداع فنانون يبدون فى نظر النقاد أو لجان التحكيم أو الجمهور مارقين أو مخرفين أو مخربين .. ويحدث هذا عند ظهور كل حركة جديدة تخرج على التقاليد المتبعة أو تحيد عن الطريق المألوف .. ولكن لا يلبث هؤلاء المرفوضون أن يعترف بفنهم ويخلع عليهم لقب الطليعيين أو المجددين ..

ولقد كانت الرومانسية التى تزعمها «ديلا كروا» حركة مارقة فى نظر الكلاسيكيين المتزمتين ، ولكن ما لبثت أن اعترف بها كومضة أمل أفاقت التقاليد الطقسية من جمودها .. وكان قد حدث نفس الشىء عندما جاء «آنجر» «ودافيد» بفكرة الكلاسيكية الجديدة» ..

* * *

● كان «آنجر» و«دافيد» ـ فى نظر «ديلا كرواه» ـ تماثيل شمعية جفت فى عروقها دماء الحياة ! وكان «ديلا كرواه» ـ فى نظر «كوربيه» ـ مفتونا بمثاليات لا وجود لها فى عالمنا الأرضى .. و «كوربيه» هذا ، هو الذى طلب إليه ذات مرة أن يرسم لوحة تضم بعض الملائكة ـ لوضعها فى إحدى الكنائس ـ فما كان منه إلا أن صاح قائلاً ، «ملائكة ؟ .. ولكنى لم أر ملاكا واحدًا فى حياتى حتى أرسمه» ! !

كان يؤمن بأن التصوير أداة تعبير لما تراه العين ، وما يدور تحت دائرة البصر

من أحداث فقط . وكان ينادى بمذهبه هذا فى محاولة لتدمير موجة الرومانسية ، التى لقيت رواجًا فى نفوس الحالمين . ولم يسلم «كوربيه» ـ أبو الواقعية نفسه ـ من الحكم الجائر من معارضيه .. فقد كان هو أيضًا فى نظر السياسيين والنقاد فى عصره مارقًا وهادمًا للمقدسات !

* * *

● **ولقد** أصاب «كوربيه» بعض النجاح ، عندما طلع ـ سنة ١٨٤٩ ـ بأسلوبه الواقعى الجديد .. فعندما عرضت له لوحة «العشاء فى أورنانس» ـ فى صالون باريس ـ حصل على ميدالية شرفية ، تخول له حق عرض لوحاته دون مراجعة هيئة التحكيم .. ولكنه عندما تقدم ـ بعد ذلك بعامين ـ بلوحتيه : «جنازة فى أورنانس» و «عمال المحاجر» .. أثارت اللوحتان عاصفة من الغضب بين أولئك الذين اعتبروا عمله يشكل خطورة على المجتمع الفرنسى ، فى عهد نابليون الثالث ، الذى كان مشغولاً بتثبيت دعائم الإمبراطورية الثانية .

وانتقلت موجة الغضب إلى الذين نهجوا نهج «كوربيه» من الفنانين المجددين .. وشهد عام **١٨٦٣** أكبر عملية رفض جماعى لدعوة التجديد ، التى بدأت تنتشر بين الفنانين الطليعيين . وتعرض عدد كبير منهم للاضطهاد الفكرى ، ومن بينهم فنانون لمعت أسماؤهم فيما بعد ، أمثال «مانيه» ، و«ويسلر» ، و «فونتان لاتور» ، و «رينوار» ، و «سيزان» ، و «مونيه» .. الذين رفضت أعمالهم ، باعتبارها دون المستوى اللائق بأكبر معرض يقام فى حاضرة الفن .

وأزعج هذا الرفض نابليون الثالث ، وكانت له بعض نزعات تحررية ..

إذ كان يرى أن لهؤلاء الحق فى أن يعبروا عن أنفسهم ، بالطريقة التى يرونها .. كما أن لهم الحق فى أن يرى الناس أعمالهم ويحكموا لها أو عليها ..

وأمام إصرار الإمبراطور ، أعد جناح خاص لعرض الأعمال المرفوضة ، بمعزل عن الأعمال المقبولة ، وسمى هذا الجناح : «صالون المرفوضين» .. وكان هذا أول معرض فى التاريخ ، تعرض فيه أعمال رفضتها هيئة التحكيم .. وكان من بين اللوحات المرفوضة ، لوحة صورها «كلودمونيه» ساعة الغروب ، سماها «تأثير» ! .. وقد أثارت عاصفة من الضحك ، من أولئك الذين تهافتوا على المعرض ، ليروا ماذا قدمه هؤلاء المفتونون .. ولم يكن واحد من هؤلاء يستطيع أن يتكهن ـ فى ذلك الوقت ـ بأن اسم هذه اللوحة سوف يطلق على اتجاه جديد ، دفع الواقعية خطوة إلى الأمام ، نحو واقعية مادية غير موضوعية .. واقعية الضوء واللون ، كما تمتصها أو تعكسها الأشياء فى مهرجان النور ، الذى يغير رداءه فى كل ساعة من ساعات النهار ..

* * *

اضبط لوحة مزيفة !

• **مع تهافت** أثرياء العالم على شراء اللوحات النادرة ، نشأت عصابات دولية لتزوير لوحات مشاهير الفنانين ، وعرضها فى الأسواق على أنها أصلية ..

ويروى عن الفنان «براك» أنه قرأ ذات مرة تقريظًا لعمل من أعماله ، ولكنه عندما انتهى من قراءة المقال ، تذكر أنه لم يرسم لوحة بهذه الأوصاف ، فذهب خصيصًا ليرى اللوحة التى نالت هذا الإعجاب .. وكم كانت دهشته عندما وجدها ليست من صنعه ، وصاح وهو لا يصدق عينيه : «شيء عجيب ! كأننى أنا الذى رسمتها بالفعل» ! ..

وهناك فنانون تخصصوا فى تقليد لوحات فنان معين بدرجة مذهلة .. وقصة الفنان الهولندى ـ الذى ظل عدة سنوات يقلد أعمال الفنان «فرمير» ، ويبيعها بأسعار خيالية قبل أن يفتضح أمره ـ قصة معروفة .. وعندما قدم للمحاكمة ، احتار القضاة فى أمره ، فهل يعتبرونه مزورًا خطيرًا ، أم عبقريًا تقمصته روح الفنان حتى ظن الخبراء أنه عاد إلى الحياة من جديد ؟ !

* * *

• **وفى باريس** ، قبض منذ سنوات على فنان ألمانى يهودى ، متجنس بالجنسية الفرنسية ـ اسمه «والتر كلايم» ـ كان يزور أعمال «ماتيس» و «براك» و «بيكاسو» ، و «ديكيريكو» ، وتقوم العصابات الدولية بترويجها فى أمريكا .. وأثناء التحقيق ، وصف المحقق براعة «كلايم» بأنها تفوق براعة السحرة والحواة ..

وفى عام ١٩٥٩ ، قبض فى إيطاليا على فنان مغمور ، اسمه «دوسينا» ، ظل لمدة أربعين عامًا يقلد التماثيل اليونانية والرومانية القديمة . كما تخصص فى تقليد أعمال «دوناتيللو» ، و «فيروكيو» ، و «ديزيديريو» . وكان يضع التماثيل فى سوائل حمضية داخل حوض مبطن بالأسمنت ، حتى تبدو كأنها قديمة ، بدرجة أن المركيز «سومى» - مدير متحف «كريمونا» - عندما عرض عليه أحد أعماله المقلدة ، اعتبره كشفًا هامًا فى تاريخ الفن القديم !

ولقد شاهدت قاعات فندقى «شبرد» و «الكونتننتال» - فى القاهرة - فى الأربعينات ، معارض لمشاهير الفنانين العالميين القدماء والمعاصرين ، كان ينظمها يهودى محتال .. وقد لقيت رواجًا بين أوساط الأثرياء وأغنياء الحرب .. وقد ذكر لى فنان مصرى معروف ، أنه رسم بنفسه عددًا من هذه اللوحات المقلدة للتاجر المحتال بأبخس الأسعار .. كما صرحت لى إحدى السيدات السويديات - التى كانت تدرس بالقسم الحر بكلية الفنون الجميلة - أنها تخصصت فى تقليد الفنانة «مارى لورنسين» ، وأنها كانت تبيعها لهذا التاجر ، وكان يعرضها بدوره فى معارضه على أنها لوحات أصيلة !

● **وهناك** نوع من التقليد المشروع ، الذى لا يقع تحت طائلة القانون .. وأنت إذا ذهبت إلى متحف من المتاحف العالمية ، فستجد عددًا من الفنانين ينقلون اللوحات الشهيرة ، ويعرضونها للبيع لزوار المتحف .. هذا النقل لا يعتبر تزييفًا ، ما دامت مساحة اللوحة غير مطابقة تمامًا لمساحة اللوحة الأصيلة ..

وتقليد التحف ليس بدعة جديدة فى دنيا الفنون ، فقد عثر فى إحدى الحفريات البريطانية - فى مدينة (غرود) الأشورية - على عدد من التماثيل عمرها ألف سنة ، كانت محفورة بطريقة ذات طابع مصرى أقدم من العهد الذى صنعت

فيه بمئات السنين ! .. وقال مدير البعثة « دافيد أوتيس » ، أن الصناع الأشوريين كانوا يزيفون هذه التماثيل ، إرضاء للزبائن الذين كانوا يريدون تحفاً أثرية ذات طابع قديم !

* * *

الفنان الذى ارتد عن مذهبه

● **أين** ذهبت الأفراس الرخامية البياض كتماثيل «فيدياس» العظيم ، التى هربت من قمة «الأوليمب» ، لتختال فوق رمال الشاطى بشعورها الطويلة ، وأذيالها الهفهافة ، كذيل عروس فى ليلة الزفاف ؟ .. وأين ذهبت الميادين المهجورة بسكونها الحالم ، وصمتها الواجم ؟ .. وأين ذهبت الأبهاء الشاردة ، العميقة الأغوار ، بمنظورها المغناطيسى ، الذى يسحب الأنفاس والأنظار إلى بؤرة العدم التى تبتلع كل شىء ؟ ..

وأين ذهبت المبانى الكرتونية الهشة ، التى تحملق نوافذها ببلاهة فى اللاشىء ، والدمى الآدمية ذات الوجوه الملساء ، التى لا ترى ولا تسمع ولا تنطق ، ومع ذلك تبادلك حوارًا داخليًا صامتًا لا ينتهى .. وتثير فيك مليون سؤال وسؤال ؟ !

* * *

● **بل أين** ذهب «جيورجيو ديكيريكو» ، الفنان الإيطالى العجوز ، الذى صنع هذا كله ، والذى كان ـ فى بداية هذا القرن ـ على ألسنة كل الناس ، ثم نسيه جميع الناس ، وتجمد اسمه فى دروب لوحاته المهجورة ؟

وكيف اختفى ذلك الفنان الذى يعتبر واحدًا من مؤسسى «السريالية» الحديثة ، ورائدًا لكبار الفنانين السيرياليين المعاصرين ، أمثال «سلفادور دالى» ، و«رينيه مارجريت» ، حتى أن «إيف تانجى» يعترف بأنه لم يقرر احتراف التصوير إلا أن بعد شاهد إحدى لوحاته ، معروضة فى نافذة متجر للوحات سنة ١٩٢٨ ؟

إن اختفاء هذا الفنان المفاجىء من عالم الأضواء طوال الستين عامًا الأخيرة أعجب من الغموض الذى يكتنف لوحاته ، وأعجب من أجوائها التى لا تتحرك فيها رياح ولا أضواء ولاظلال . وأعجب من شخصياته ، التى تبدو ـ برغم هيولتها وعملاقيتها ـ نائية كالسراب ، سحيقة كالنسيان !

فليس بين الفنانين فنان بلغ ما بلغه «ديكيريكو» من شهرة ومجد ، ثم هوى «فجأة» من قمة الشهرة إلى حضيض المجهولية ، لا لشىء إلا لأنه تحول عن عقيدة اعتنقها فى مطلع شبابه ، ثم أعتنق مذهبًا آخر رأى أنه أكثر التصاقًا به !

إن اللوحات «السيريالية» التى صنعها الفنان فى مطلع شبابه ـ سنة ١٩١٨ ـ جعلت منه علمًا من أعلام الفن الحديث فى العالم الغربى .. ولكنه عندما تجاوز الثلاثين من عمره ، اكتشف فجأة أنه ضل الطريق ، فعاد أدراجه بكل شجاعة إلى الكلاسيكية التقليدية ، ضاربًا بشهرته عرض الحائط .. ومنذ ذلك الحين ، لم يكف عن التصريح بأنه لم يكن فى يوم من الأيام فنانًا حديثًا ، وإن السيرياليين أساءوا فهمه وفهم أعماله ..

* * *

وعاد «ديكيريكو» إلى الكلاسيكية أشد تعصبًا من الكلاسيكيين أنفسهم ، وكأنما أراد بهذا التطرف أن ينفى عن نفسه وصمة لحقت به ، فراح يتبرأ من كل ما يتصل بها بعنف وإصرار ..

وفى بداية عام ١٩٧٢ ، أراد المركز الثقافى بمدينة نيويورك أن ينتشل الفنان العجوز ـ الذى تخطى إذ ذاك الثمانين بأربع سنوات ـ من بؤرة الظل ، وأن

يلقى عليه بعض الأضواء .. فأقام معرضًا شاملاً ، يضم ١٨٠ عملاً من أعماله التى أنجزها خلال الستين سنة السابقة ، من ١٩١١ حتى سنة ١٩٧١ .

وبمقارنة أعماله المجتمعة فى مكان واحد ، بعضها ببعض ، يبدو بوضوح الخط الفاصل بين مرحلته الحالمة - فى مطلع حياته - وواقعيته المتطرفة بعد أن تجاوز الثلاثين ..

إن بصمات السنوات الحزينة التى قضاها فى طفولته فى مسقط رأسه - فى اليونان - بصحبة والده الصقلى الحاد المزاج ، الذى كان يعمل فى اليونان ، ينتقل كالغجر الرحل من بلد إلى بلد ، هربًا من دائنيه .. إن بصمات هذه الفترة تبدو واضحة فى الأعمال التى سبقت «سيريالية» الفنان ، وخاصة فى المنازل الرطبة ، والرياح الغاضبة التى تعصف بلوحاته المبكرة ، والتى ظهرت - بوضوح أكثر - فى الفترة التى كان يدرس فيها الفن فى ميونيخ ، حيث كانت تحاصره الرؤى والأحلام والكوابيس ، وتتراقص أشباحها أمام عينيه ..

* * *

● **وعندما** استقرت به الحال فى مدينة تورينو بايطاليا - سنة ١٩١١ - بدأت تأملاته الباطنية تحوم حول ذكريات طفولته المهوشة ، ومفردات حياته المشردة ، التى قضاها ممزقًا كتمثال مهشم بين أطلال مدينة بالغة القدم .. والتى يذكرها بمرارة فيقول : «لقد كتب على أن أغير عنوانى كل يوم ..» !

ويدرك الفنان - وهو فى سن الثلاثين - أن هذا العالم الذى يخوض مجاهله ليس فيه صلابة عصر النهضة ، فمشخصاته شبحية غامضة كالطلاسم .

توحى باحساس غبى وتافه .. ومنظوره ينزلق بشكل يتعارض مع الواقع .. فيقرر أن يرتد ، وأن يعود تقليديًا بالمفهوم الإيطالى الصحيح ..

ولكن هذا التحول المفاجىء يكلفه غاليًا .. فبداية الرحلة من جديد كانت تتطلب نوعية جديدة من الدراسة ، جعلت أعماله فى هذه الفترة تبدو كأنها تقليد ممسوخ لأعمال «تيسيان» ، وكأعمال طلبة المعاهد .. ولكننا نلمس ما كان يعانيه الفنان فى مرحلة الارتداد من صراع ، أثناء محاولته العثور على نفسه ، فى رسالة كتبها إلى زعيم السيريالية «أندريه بيرتون» يقول فيها : «منذ ثلاث سنوات تعذبنى مشكلة واحدة .. هى مشكلة الرسم !» .. ولكننا نستشف من ورائها ذلك العناد الجنونى ، الذى كان يدفعه للانفصال من حاضره بكل أمجاده ، ليلقى بنفسه فى أحضان الماضى ، ولو كان فى ذلك قضاء على مستقبله وعلى شهرته !

* * *

الـذين يصـارعـون الظـلام والعجـز !

● **على** ظهر الباخرة التقيا .. الفنان عائد إلى وطنه ..

والراقصة تستند إلى عكازين .. فى طريقها إلى أمريكا للعلاج ..

قالت له الراقصة : «سأقاوم الشلل ، وأحارب المرض .. وألقى بالعكازين وراء ظهرى ، وأعود للرقص من جديد .. وإن فشل الطب فى شفائى ، فسأرقص برجل واحدة .. وإن عجزت ساقى عن حملى ، فسأرقص بأطرافى وأنا جالسة على مقعدى المتحرك .. وإن عجزت جميع أعضاء جسمى عن الحركة ، فسأرقص بخيالى .. وسأظل أرقص وأرقص وأرقص ، حتى أنهار أو أفارق الحياة ..» !

* * *

● **ومضت** ثلاثون عامًا ..

وبدأ الظلام يزحف إلى إحدى عينى الفنان .. والقلق أيضًا .

ومن خلال الضباب ، رأى الراقصة بعين خياله تصارع الشلل ، وترقص وتقفز فى الهواء ، كالفراشة . !

قال لنفسه : لست أقل إيمانًا من الراقصة .. سأقاوم الظلام ما استطعت .. سأمحو السحب السوداء من حياتى .. سأحاول أن أرسم بعينى الاثنتين ، فإن فشلت فسأرسم بعين واحدة ، وإن عجزت فبنصف عين .. وإن قهرها الظلام هى الأخرى ، فسأغمض عينى وأجتر الألوان ، فعندى من الألوان رصيد ضخم ، يكفينى ما بقى لى من عمر .. وعندى من الأنوار ما يكفى لإضاءة أعماقى قبل أن يطوينى ظلام القبر !

وهكذا أيضًا عاش أستاذى «أحمد صبرى» آخر أيامه فى صراع مع الظلام ، يحاول أن يزيح الأستار السوداء التى أسدلها الظلام على عينيه بلا رحمة .

عبثًا كانت عيناه تحاولان اختراق الضباب الكثيف المنعقد حوله .. وكان يمسك فرشاته فى عناد وإصرار ، لينثر الألوان كعادته .. فرحة ، مرحة ، متفائلة فوق سطح اللوحة !

وكان الأمل يراوده فى أن يقهر المرض الخبيث ، ويغمر الدنيا بالألوان ، ويفيض النورعلى عالمه من جديد .. ولكن النور كان يترنح على لوحاته ، ويتعثر بين ثنايا الضباب .. وكانت اللمسات لا تجد طريقها الصحيح فوق وجوه الحسان ، وأكمام الزهر ، وطيات الحرير ، التى كان أبرع وأقدر من رسمها من الفنانين .

وكان الظلام أقوى من الأمل .. وانهارت الريشة التى كانت ترتشف الضياء وتلتهم ألوان الطيف .. وبقيت لوحة «الراهبة» روعته الخالدة .. يشع منها نور ساحر لا يعرف الذبول .. نور يشع من العمل الخالد ، ويبعث الأمل والسكينة والرضا فى كل قلب .. ويعلم الأجيال معنى الإيمان .

* * *

● وكان «رينوار» أبو التأثيرية ، برغم بلوغه أرذل العمر ، لا يعترف بالشيخوخة ، كان فى أواخر أيامه عاجزًا عن أن يمسك الفرشاة بأصابعه ، فكان يثبتها فى معصم يده بشريط لاصق ، ثم يشرع فى الرسم .

غير أن أسلوبه ظل طوال حياته متسمًا بالنضارة والحيوية والربيعية .. وظلت لمسة الأمل الشابة عالقة بريشته وهو يرسم الأطفال متوردى الوجنات وهو يقول

لأصدقائه معبرًا عن شكره لله الذى لم يسلبه بصره كما حدث لصديقه الفنان «ديجا» ! ! !

* * *

● **ولا بد** أن «جويا» الفنان الأسبانى الكبير ـ كان يقول نفس الشىء ، وهو يقضى آخر أيامه فى منفاه ، وراء جدران الصمت ، هربا من انتقام محاكم التفتيش .

كانت الألوان تنساب بين جفنيه المرهقين ، اللذين أضنتهما ذبالات الشموع المتراقصة على حافة قبعته ، لتضىء مواقع لمساته وهو يرسم فى ظلام الليل ..

لم تعد أذناه تسمعان رنين الألوان .. ولا حفيف الفرشاة ، وهى تحتك بسطح اللوحة بضراوة وعنف .. ومع ذلك ، كان راضيا بهذا البصيص الذى تبقى له ، ويحمد الله الذى لم يفقده هذه النافذة التى ترتبط بعالم النور .. ويذكر «بتهوفن» ـ الذى أصيب فى أعز ما يملك ، وفقد سمعه ـ ومع ذلك استطاع أن يتحدى الصمم ، وأن يؤلف سيمفونيته التاسعة ، التى تعتبر أعظم الروائع الموسيقية التى عرفها التاريخ !

* * *

● **وكان** بيكاسو يقول : «يجب أن يفقأوا عين الفنان لكى يرى أحسن .. مثلما يفقأون عين طائر الكنارى لكى يبدع فى الغناء ..

وبيكاسو عندما قال هذا ، لم يكن يعنى إطلاقًا أن يفقأوا عيون الفنانين التى

يطلون بها على العالم الخارجى ولكنه كان يقصد أن الفنان وإن كان ذا عينين كبقية الناس ، يرى الأشياء كما يراها الناس ، إلا أن عينيه لا تلتقطان المرئيات كما تنطبع على شبكية العين ، أو كما تلتقطها عدسة «الكاميرا» .. وإنها إذا كانت كذلك فخير لعينيه أن تفقأ .. أو أن تبحث لها عن منفذ آخر ، تطل منه إلى الداخل لترى أحسن وأعمق ..

إن البصر غير البصيرة .. وخير للإنسان أن يفقد بصره من أن يفقد بصيرته ! فيفقد نفسه ويفقد الدنيا بأسرها !!!

* * *

شهيــد نسينــاه

● **لم يكن** أبو «يوسف الصديق» ظالمًا ولا متجنيًا ، عندما كان يؤثر «يوسف» على إخوته ، فقد كان يدرك – بثاقب بصره – ان داخل هذا الغلام رسالة تدخرها السماء ليوم معلوم ..

وكنا تسعة زملاء .. بل تسعة أشقاء ، جمعهم القدر من أرحام متعددة تحت سقف واحد .. وكان يربطنا جميعًا رباط من الود والتعاطف ، لم يكن مألوفًا فى أى مناخ آخر .. وربما كان هذا التعاطف سببه الهدف المجهول ، الذى جمعنا من أطراف متباعده ، لنكون باكورة إنتاج ذلك المعهد القابع فى دروب شبرا ، والذى كان مقدرًا أن يتخرج فيه آلاف الفنانين فيما بعد ..

وكان بين أساتذتنا الأجانب أستاذ إنجليزى يدرس لنا مادة الحفر ، اسمه «رايس» . ولمسنا باحساسنا الساذج اهتمامًا خاصًا من هذا الأستاذ بزميلنا «نحميا سعد» ، تحول مع الأيام إلى صداقة وزمالة .. وكنا نتساءل : لماذا يحتضن أستاذنا هذا الزميل الذى لا يفضلنا فى شىء ، ويقربه إليه دوننا جميعًا ؟ .. نفس السؤال الذى راود إخوة «يوسف» ، ودفعهم إلى إلقائه فى غياهب الجب .

وجاءنا الجواب بعد ذلك يحمله النضج والوعى التدريجى ، الذى كانت تسكبه فى أعماقنا الأيام الشحيحة قطرة قطرة .. فقد أدركنا أن عين الأستاذ المدربة وحاسته «الرادارية» المرهفة ... استطاعت أن تلتقط من بيننا موهبة منفردة ، ادخرتها تربة الوادى بين طياتها ، لتقوم بدور بادى الأهمية فى فن الحفر الوليد . وتبددت الدهشة من نفوسنا ونحن نشاهد النواة تتفتق وتورق ، ويرتفع ساقها ، وتتعمق جذورها ، وهى ما زالت طرية العود ، فتحيلنا بجانبها إلى أقزام ..

ورأينا خطوات «نحميا» تسبقنا بفراسخ ، وهو يعدو فلا نستطيع ملاحقته .. ووجدنا أنفسنا نقدره تقدير الطلبة للأستاذ لا للزميل ، ونلجأ إليه عندما تعترضنا بعض المشاكل فى هذا الفن العويص .. وشهدنا له بما شهد به إخوة «يوسف» لأخيهم من قبل .. ولم نكن وحدنا شهداء عليه ، بل كانت هناك أعماله ، وفنه ، والنقاد ، والخبراء المحايدون ... والتاريخ فيما بعد !

* * *

● **وعاش** «نحميا سعد» مع الأحلام الكبار . وكانت أحلامه أكبر من إمكانات عصره .. وكان هناك نفر من المسئولين يقدرون عبقريته ، وطاقاته التى لا ينبغى أن تسجن بين حدود مصر .. فرشحوه لتزيين واجهة الجناح المصرى ، فى معرض باريس الدولى سنة ١٩٣٧ .. ونال الفنان الموهوب «الميدالية» الذهبية ، تقديرًا لما أبدعه فى ذلك المعرض الدولى الكبير .

وذهب إلى الأقصر ليعيش عيشة النساك فى رحاب التراث الخالد .. وهناك زاده التأمل تألقًا واشراقًا ، وازدادت شخصيته تبلورًا ، ومصريته تأكدًا ووضوحًا .. وقالت قطع الخشب والزنك ـ التى تحفرها أنامله الهزيلة ـ ما لم تستطع مباهج الألوان ولا بريق الأضواء أن تقوله على أطراف فراجين كبار المصورين من معاصريه ، والذين جاءوا من بعده .. فقد كان قوله عصارة الصدق .. وعبير الأصالة .. قولا يمتزج دماءً بالأحبار السوداء .. وعرقًا يتخلل الخدوش الدقيقة ، التى تنبض كالنور وسط السواد .. وتتلألأ كضوء الفجر ، وهو يطل من وراء قمم التلال السمراء ، ليغمر الوداى بتلك الخصوبة التى تحمل بين طياتها ذلك السر الأكبر .. سر الفن العظيم !

وإذا كان فن الرسم والحفر يجاهد لكى يتنصل من أية قرابة أو نسب يربطه بالفنون

الأخرى كالشعر والأدب والموسيقى .. فإن رسوم «نحميا سعد» تقنعنا بمنطقها الهادئ الرزين . بأن الخط قد يتحول فى يد الفنان التشكيلى إلى بيت من الشعر .. واللوحة إلى قصيدة غزلية . واللمسة إلى نغم ولحن .. فقد استطاع «نحميا» أن يجعل من رسومه مقطوعات شعرية بالغة الرقة والعذوبة .. وأن يجعل من ايقاعها نغماً قدسياً أشبه بترانيم الملائكة .. لحناً لم يلبث أن حوله القدر إلى لحن جنائزى . يزف جثمانه الذى براه «المرض الأصفر» بين ربى الوادى الغربى الذى يضم رفات أجداده الخالدين ..

* * *

● وراح «نحميا سعد» شهيداً . وهو فى عمر الزهور .. وذابت ذكراه فى دوامة السنين .. ولمعت من بعده أسماء كثيرة . كأضواء «النيون» التى تبهر الأنظار فى شارع الملاهى .. وطغت أضواؤها على ذلك القبس الهادىء . الذى كانت فتيلته تحترق .. فى مشكاة نقية لم تعرف الرياء ولا المداهنة ..

إن منمنمات «نحميا سعد» التى ينبعث همسها من أغوار الصمت السحيق ليطرق الأسماع رفيقاً رقيقاً . مهيباً جليلاً . بلا ضجة ولا ضجيج .. ترغمنا على الاقتراب منها لدرجة الالتصاق بها لنحسن الإنصات إلى دقائقها .. وأحياناً نعجز عن الإحاطة بهمسها الناعم . فيزداد التصاقنا بها لنحس بدفء يسرى فى أوصالنا .. دفء الهمس الممتزج بالأنفاس الحارة . دفء يخاطب البشرة قبل أن يدلف إلى صمام الأذن .. ثم يسرى بعد ذلك إلى أعماق الوجدان .. ولا نملك إلا أن نهتف .. رحمه الله . لقد سبق زمانه !

وهذه سمة الشهداء !

شاجال .. وميدالية السلام ...

طالعتنا الأنباء بأن «كورت فالدهايم» سكرتير عام الأمم المتحدة أهدى المصور العالمى «مارك شاجال» البالغ من العمر ٨٨ عاماً ميدالية السلام الخاصة بالأمم المتحدة .. فمن يكون هذا الفنان ؟؟ وما هو السلام الذى حققه ؟؟

فى صيف ١٩١٠ وقف اليهودى الشاب «مارك شاجال» فوق سلم القطار وهو يقترب من محطة باريس وفى يده حقيبته الهزيلة ، وكأنه مقبل على عالم جديد تاركاً وراءه ٢٣ عاماً من البؤس والفاقة عاشها فى مسقط رأسه «فيتسبك» الميناء الروسى الصغير الذى يسكنه خمسون ألف نسمة.

وكان فى انتظاره على الرصيف صديقه «فيكتور مكلر» الذى سبقه بعام واحد إلى عاصمة الفن . والذى دعاه ليتقاسم معه غرفته المتواضعة فى فندق بأطراف العاصمة .. وفى الطريق ، كان الشاب القادم من أقصى الشرق ينظر إلى ما حوله فى بلاهة وذهول وهو منبهر بمظاهر الحضارة والعمران .. وكانت عيناه تلتهمان ما تقعان عليه بشراهة الجائع الذى امتدت أمامه مائدة مليئة بأشهى الأطعمة .

لم يكن أحد فى هذه اللحظات يستطيع أن يتنبأ بأن الطفل الذى ولد فى ٧ يوليو سنة ١٨٨٧ فى أحد أكواخ «فيتسبك» الرطبة سوف يصبح من أشهر الفنانين العالميين فى الربع الأخير من القرن العشرين ..

لم يرث «شاجال» الموهبة من أحد من أقربائه ، فقد نشأ فى أسرة رقيقة الحال يعولها رجل كادح تفوح منه رائحة «الزفر» طول النهار .. وهو يصف أباه لأحد أصدقائه قائلاً :

«هل رأيت فى إحدى لوحاتى صورة الرجل ذى اللحية التى لم تحلق أبداً ؟؟

هل رأيت عينيه اللتين تشوبهما رمادية ذابلة؟ ولون بشرته الشاحب الذى تتخلله الغضون والتجاعيد ؟؟ إنه أبى «زهار شاجال» الذى كان يعمل فى أحد مخازن «الرنجة» والذى كان يضطره عمله إلى حمل البراميل الثقيلة التى ينوء تحت ثقلها كاهله .. وكانت الأملاح العالقة بثيابه تلمع تحت الأضواء ... وعندما يصاب بالإنهاك الشديد ينام فوق المائدة حزينًا دائمًا ... مكتئبًا فى أغلب الأوقات .. لا تكاد العشرون روبية التى يتقاضاها تكفى لإطعام أولاده الثمانية !!!

ولا يمل الفنان المهاجر من اجترار أيام طفولته واسترجاع صورها الغائرة فى أعماقه ، والتى تدور حولها معظم لوحاته .. وهو يذكر كيف كان يقف إلى جوار نافذة مخزن الغلال فى أيام السبت ـ يوم عطلة اليهود ـ ينظر إلى العالم الممتد أمامه خارج زجاج النافذة ، بينما يرتل عمه بعض فقرات من التوراة بصوت جهورى .. ثم يمسك الكمان ويعزف عليه بعض الألحان ،.. ويذكر ذلك الشريط من الأكواخ والكنيسة والتل الصغير والمصنع المغلق والأبواب الملونة التى يمرح أمامها الدجاج .. ويذكر أيضًا الجبن والخبز الذى لم تكن تخلو منه مائدتهم .. وكيف لم يفارق الرغيف المحشو بالزبد يده فى أى وقت من الأوقات .. فى الطريق ، وفى فناء المدرسة ، وحتى فى المرحاض ..

ويقول «شاجال» هل معنى هذا أننا كنا جائعين ؟؟ كلا .. ولكنه نوع من الشراهة .. شهوة دائمة للمضغ .. للإحتواء .. للحلم .. للتثاؤب !!

ويذكر الفنان أيضًا الآلام المريرة التى قاساها إثر عضة كلب مسعور .. وكيف كان ينام فى فراشه الضيق بجوار أخيه لا يغمض له جفن . وعيناه تحملقان فى الظلال التى تتراقص فى سقف الكوخ ، حيث تشاركهما الفئران الوسادة التى ينامان عليها . ولا يذوق النوم إلا عندما يتسلل نور الفجر من زجاج النافذة العتيقة ..

ومثل كل طفل يهودى ، يذهب إلى «الكتاب» حيث يتولى اثنان من «الربانيين» تعليمه اللغة العبرية ونصوص التوراة .. وكان كل أمله أن يتحرر من سيطرة أبيه ويصبح مغنيًا أو عازفًا للكمان ...

ولم تتكشف مواهب الطفل التصويرية إلا بمحض الصدفة عندما عرض عليه أحد زملائه بالمدرسة رسمًا له بالفحم ، فما كاد يراه «شاجال» حتى أحس بالغيرة تنهش قلبه ، فتوجه لتوه إلى المكتبة وراح ينسخ لوحة شخصية للموسيقار «روبنشتين» .. ما أن وقع نظر أحد أصدقاء الأسرة عليها حتى صاح قائلاً .. هذا الصبى فنان موهوب ... وكانت أول مرة يسمع فى حياته كلمة «فنان» ...

كان احتراف الفن آخر شىء يتصوره أى فرد فى عائلة يهودية .. ولكن إصرار الصبى على إشباع هوايته الجديدة اضطر أباه أن يقذف فى وجهه بخمس روبيات ليذهب إلى الجحيم .. وراح الغلام يلتقط النقود وهى تتدحرج على الأرض وبدأ يتردد على مراسم الفنانين ، ولكى يستطيع أن يكمل رحلة الفن عمل عند أحد المصورين الفوتوغرافيين كمساعد فى عملية «الرتوش» نظير أجر زهيد .

وقبض عليه ذات مرة وهو يسير فى شوارع «بطرسبرج» وأودع السجن لمدة خمسة عشر يومًا لأنه لم يجد البطاقة التى يتحتم على كل يهودى أن يحملها حتى يسمح له بالتجول فى المدينة ..

وفى باريس فتحت أمامه أبواب الشهرة .. إذ كلفه «فويار» بتصوير أشعار «لافونتين» .. ودعاه عمدة «تل أبيب» لزيارة المدينة ، فزار فلسطين وسوريا ومصر ، وتعرف على المناخ الذى دارت فيه أحداث التوراة ... وراح يصورها بتكليف من «فويار» ... وأثناء احتلال النازى لفرنسا هرب «شاجال» إلى «اللوار» فى الجنوب فرارًا من بطش الألمان .. وفى عام ١٩٦٥ كلف بتجميل سقف أوبرا باريس بأسلوبه الحالم الذى انفرد به ...

ومن الغريب أن يعيد «شاجال» صلب المسيح مرة أخرى سنة ١٩٣٨ فى إحدى لوحاته .. إذ صوره مصلوبًا وسط مظاهر العنف والدمار التى تهدد العالم .. ووضع المسيح وسط اللوحة كشاهد على عذابات البشرية !!

إن هذا الإحساس العميق «بيهوديته» هو الذى كان يشكل أحلامه ويكسبها ذلك المذاق السيريالى .. وليست فانتازياته إلا نوعًا من شطحات الخيال ، أو الهروب من مرارة الواقع .. إنها تحرير نفس مثقلة بقيود عنصرية تلصقها بالأرض ، وتحليق فى عوالم أسطورية . واقتحام أسوار «الماوراء» وسراديب الأمانى المكبوتة ... وربما تكون قد حققت نوعًا من السلام بينه وبين نفسه . ولكن هل حققت للبشرية سلامًا يستحق عليه وسام السلام ؟؟؟

* * *

مصــرى فى مملكة سبأ ...

عندما ضاق «جوجان» ذرعا بالمدنية الحديثة ، وكفر ببريقها الزائف الذى يخطف الأبصار دون أن ينفذ إلى القلوب .. وثار على الطلاء الزائف الذى يطمس روح الإنسان ويجثم على قلبه ووجدانه ، ركب البحر تاركًا وطنه وزوجته وأولاده ، وراح يبحث فى البحار الدافئة عن الحياة البكر التى لم تلوثها المدنية ، فوجدها فى جزر «هاييتى» حيث يعيش الناس فى وسط الأحراش عيشة البداوة والفطرة النقية ...

وفى هذه الجزر أنتج «جوجان» أروع أعماله عندما عثر على الأكسير الذى أزال عن نفسه أصداء الرفض ، وكانت النتيجة جديرة بالمغامرة التى دفع حياته ثمنًا لها ..

وفى مصر ... كان فناننا «محمد ناجى» يبحث عن مناخ جديد يثير خياله ، ويحرك فى أعماقه سطح البحيرة الراكدة . كان توأم «جوجان» فى تطلعه نحو المجهول .. لقد صورت ريشته جميع صور الحياة من حوله ، ولكنها تواقة إلى لون آخر من الحياة يفجر كوامنها ...

وتطلعت الريشة المغامرة إلى نهر النيل الذى يشق الوادى من الجنوب إلى الشمال ، وراحت تتخيل الحياة عند منابع هذا النهر الذى يبدأ رحلته من هضاب الحبشة .. وتمنت لو استطاعت أن تسبح عكس التيار حتى تبلغ منابعه ، وتتعرف على شكل الحياة وسط الوجوه السمراء ، حيث يتربع حفيد الملك سليمان على عرش ملكة سبأ ...

وتحول الحلم إلى قرار .. والقرار إلى حركة .. وسافر «محمد ناجى» إلى

الحبشة ، فكان أول فنان تطأ أقدامه هذا البلد الإفريقى .. وزار النجاشى «هيلا سلاسى» وتوطدت بينهما علاقة وثيقة ، وصور عدة لوحات للملك والملكة ورجال البلاط .. وصور كذلك صورًا كثيرة من الحياة فى هذا الإقليم الغنى بمناظره وتقاليده ..

وجدت ريشة «ناجى» فى هذا المناخ الخصيب نبعا لا ينضب من الموضوعات والمناظر الطبيعية ، وعاد ومعه حصيلة هائلة من اللوحات والرسوم والعجالات التى ضمتها متاحف القاهرة والأسكندرية .. وكذلك مرسمه المقام على مشارف اهرامات الجيزة ، والذى تحول إلى متحف يضم أعماله .. أهداه ورثته للدولة ..

وفى فرنسا حيث كان يدرس القانون ، زامل الفنان الرائد «محمود مختار» لفترة طويلة ، وعاصرا سويا ثورة سنة ١٩١٩ وانفعلا بأحداثها ، واستطاع أن يصقل مواهبه الفنية على يد كبار التأثيريين الذين تمركزوا فى باريس فى هذه الفترة ..

وكان «ناجى» صديقًا شخصيًا للفنان الفرنسى والناقد الكبير «أندريه لوت» الذى تأثر بنظرياته «السيزانية» إلى حد كبير .. وخاصة فيما يتعلق «بالنسبة الذهبية» التى كان يرى أنها أساس الأعمال الإنشائية الكبيرة .. وكان يراسله ويأخذ رأيه فيما يتعرض له من مشاكل البناء والتكوين واللون فى لوحاته .

تحول من التأثيرية إلى ما بعد التأثيرية ، واستطاع أن يوائم بين حسه المرهف ، وبين عقلانيته المنظمة ، وهو ينسج خيوط لوحاته التى تتصارع فوقها الألوان الحارة والباردة .. عمل عميدًا لكلية الفنون الجميلة بالقاهرة . ومديرًا لأكاديمية مصر فى روما . وعلى يديه تتلمذت شقيقته الفنانة «عفت ناجى» ومن أروع أعماله اللوحة العملاقة التى تمثل «صحوة مصر» الموجودة بمجلس الشعب ...

* * *

اللمسة الأخيرة

ثلاثة وسبعون عامًا ... لم تتوقف خلالها الريشة المغردة لحظة عن الشدو وإرسال النغم ، والعمر لا يحسب بالسنين والأعوام .. بل العطاء كما وكيفا .. فقد عاشت الريشة الصداحة فى ربيع دائم . وشباب لا يعرف الشيخوخة .. غذاؤها رحيق اللون المصفى .. وشرابها ذوب الضوء الرائق .. ومسرحها رحاب الكون كله .. وحركتها صعود فى صعود .. فى صعود .. متنقلةمن افق إلى افق إلى افق .. لا أمس ولا وراء .. وإنما امام مشرق .. وغد يملؤه التفاؤل والأمل والطموح .. الكون كله ساحة بلا حدود .. وضعها زمانه تحت أقدامه ، ليزركشها بريشته الطيبة التى لم تعرف سوى العطاء والحب .. ويزوقها بقلمه العفيف الشريف كلسانه الذى لم يصدر عنه إلا كل ما هو نظيف وشفيف .

ثمانية وسبعون عامًا من النسك والتعبد والتهجد فى معبد أبوللو .. يريق دمه على مذبحه قطرة قطرة .. ويحرق مهجته فى محرابه بخورًا قطعة قطعة .. عشق صوفى حقيقى ، لا يرضى بغير الفناء فى المحبوب . وهو عشق يعتصر البدن زيتا يلهب به الفؤاد ويزيد وهجه واشتعاله ..

(سيف وانلى) جيل كفاح .. لوحة من نور .. نموذج رائع من العصامية والاصرار وبناء الذات .. مدرسته الحياة .. وجامعته التجربة الشخصية .. ومعلمه العطاء الانسانى كله .. وفلسفته العمل فى صمت وتواضع شديد .. موقعه .. ساحل الاسكندرية .. لفظه البحر كقطعة من الاسفنج الكثير المسام . تمتص وتفرز بلا توقف .. تربع فوق القمة صعودًا من القاع هو وشقيقه فى الدم والفن (ادهم وانلى) .. وكان تسلق الجبل شاقًا وقاتلا . ولكن الحب كان أقوى

من العرق والنزيف والانفاس اللاهثة .. وعاش الاخوان راهبين فى صومعة فينوس إلهة الجمال .. عاشا عيشة الكفاف على دريهمات قليلة يتقاضونها من وظائف ادارية متواضعة .

وبدأ الاخوان رحلة الفن معًا .. كانا قطعة نابضة من الاسكندرية .. وكان مرسمهما أحد معالمها الثقافية التى لا تخلو من الزوار والاصدقاء والمريدين بالليل والنهار .. كونا معا مدرسة الاسكندرية الحديثة .. وكان لهما حواريون كثيرون .. وطافا معا قطاعات الحياة كلها قطاعا قطاعا .. زارا حلبات السباق والاديرة والاسواق والسيرك والشواطىء والموانى .. وعاشا سيرة رواد الموسيقى العالميين . وسافرا إلى بلاد النوبة وإلى بلاد أوربية كثيرة .. وكانا يسجلان بريشتهما اللماحة كل ما يصادفهما ، لا يشبعان ولا يكتفيان ..

وقيل فى ذلك الوقت أنه ظهر منافسان خطيران للفنان الفرنسي الشهير (ديجا) الذى انفرد بين الفنانين جميعًا برسم راقصات الباليه وقيل أيضًا إن الأخوين (وانلى) تفوقًا على «ديجا» فى اقتناص الحركات الرشيقة والأضواء الخفاقة التى تغمر خشبة المسرح وتسكب فيها ذلك السحر الذى لا يدانى .. وكان هذا القول صحيحًا . فقد بلغت قدرة الشقيقين على التعبير عن هذا الجو المسرحى درجة تقرب من الاعجاز الخارق ..

وشاء القدر أن يفقد أحد الشقيقين ظله .. ويذهب (أدهم) تاركا وراءه (سيف) من غير سند يسند إليه ظهره .. وأحس (سيف) بمرارة اليتم الحقيقى الذى لم يشعر به عندما فقد أباه وأمه ، وعصف الحزن بالأخ المكلوم وأدناه من حافة الانهيار ، وانسكب اليتم فى مراثى لونية تعتبر من أروع ما أنتجه الأخ اليتيم ..

* * *

وانتصرت الحياة على الموت مرة أخرى .. وانطلقت الريشة تبلبط فى بحور الألوان غير معترفة بأرقام السنين ولا أزمات المرض .. واعترفت الدولة بفضل الرجل العملاق فمنحته جائزة الدولة التقديرية .. وكرمته مرة أخرى واهدته الدكتوراة الفخرية فى عيد الفن .. وكان أحد العملاقين اللذين حصلا على هذا الشرف الكبير : (سيف وانلى) الفنان التشكيلى .. (ومحمد عبد الوهاب) الموسيقار .

وتعددت أساليب الفنان العملاق .. كانت ريشته المتعطشة ريشة طليعية تجريبية تجرى وراء كل جديد .. كانت النافذة التى تطل منها مصر على أخر صيحات الفن فى العالم .. مارست الأكاديمية والتأثيرية والتكعيبية والتجريدية .. ولكنها لم تكن فى كل منها تابعة أو مقلدة . بل كانت ريشة سكندرية خلاقة ، تنتمى إلى ذلك البحر العريق صانع الحضارات .. كانت ريشة ساحلية تغسل أطرافها فى كل لحظة فى مياه الشاطىء النقية وتطلع علينا رائقة صافية منتعشة نشطة سعيدة متفائلة .. لا أثر لعرق المعاناة وصدمات المغامرة ونزيف العدو بلا توقف ..

لقد غنت مصر كلها ألحان ابن الأسكندرية (سيد درويش) وتكحلت عيون مصر كلها بألوان ابن الأسكندرية (سيف وانلى) ! كلاهما خالد فى تاريخ مصر ووجدان مصر .. وكلاهما ترك بصماته غائرة فى ضمير مصر ..

* * *

مواويل على رباب من وتر واحد

يقول الفنان الكبير «راغب عياد» أحد دعائم الحركة الفنية المعاصرة ، والحاصل على جائزة الدولة التقديرية والذى يقيم معرضه الأربعين فى قاعة اختاتون بمجمع الفنون بالزمالك ، يقول : إننى أول ما وطأت قدماى رصيف ميناء الأسكندرية عقب عودتى من بعثتى فى إيطاليا ، أقسمت أن أخلع القبعة إلى الأبد ...

ولم يكن الفنان يقصد خلع القبعة التى كان يتقى بها الشمس والمطر عندما كان يدرس الفن فى روما ، وإنما كان يرمز بها أن يكون مصريًا من قمة الرأس إلى اخمص القدم ! !

وكان القرار قاسيا بالنسبة لشاب تشبع بالتعاليم الغربية سواء عندما كان يدرس فى مدرسة الفنون المصرية على يد أساتذه أجانب ، أو أثناء بعثته الدراسية فى روما ... لم يكن استئصال كل ما تعلمه أثناء دراسته شيئًا سهلاً مثل خلع القبعة .. فالطالب لا يستطيع أن يمحو من أعماقه بصمات أساتذته الذين يعتبرهم مثله الأعلى ، ولكن «راغب عياد» استطاع أن يفعل ذلك بمجرد أن اتخذ قراره الحاسم ...

لقد كانت الحركة الوطنية التى اشعلتها ثورة سة ١٩١٩ تسرى فى عروق شباب ذلك الجيل وتذكى فيهم روح التحرر من النفوذ الأجنبى .. ولقد كان الاستعمار الفكرى والثقافى يمثل خطرًا أشد من الاستعمار العسكرى والسياسى لانه بدأ يعمق جذوره فى المجتمع المصرى حتى بدأ يفقد أصالته وقوميته ..

وكان المثال «محمود مختار» زميل «راغب عياد» أول من حمل هذه الدعوة

من الفنانين عندما جسدها فى تمثاله الجرانيتى الرائع «نهضة مصر» .. الذى يعتبر نقطة تحول فى تاريخ الفنون ، وحلقة وصل جمعت طرفى القديم والحديث لكى يستمر مسار التاريخ الحضارى فى قناته الطبيعية .. أسلوبًا جديدًا اتبعه المصور الفرنسى الشهير «دومييه» عندما نقد مجتمعه بقسوة فى سلسلة من لوحاته ذات السمة الكاريكاتورية وكذلك فعل من قبل المصور الأسبانى «جويا» كتعبير عن عدم الرضا عن حالةيرفضها ، ويرفض بقاءها فى مجتمعه ..

ثم بدأت الريشة تتجاوز حدود القاهرة وتغوص فى أعماق الريف من شمال الدلتا إلى أقصى الجنوب.وفى هذا المناخ وجدت نبعًا لا ينضب من الموضوعات الشائقة انغمست فى تسجيلها بانفعال دافئ وتلقائية متدفقة ، وتحولت المشاعر كيمائيًا داخل مفاعل نفس الفنان إلى خطوط وألوان انفردت بطابعها المتميز ، فكانت رشحًا طبيعيًا أملاه واقع لم يخل من بعض اللمحات التى تطل من جدران المقابر والمعابد القديمة كأنها أصوات تأتى من بعيد مازال يرن صداها فى حاضرنا نلمسه فى حياة الفلاح الكادح الذى يعمل فوق التربة السمراء منذ آلاف السنين بنفس الاصرار والصبر والمثابرة ..

لم يكن «راغب عياد» وهو يعبر عن حياة ابناء عمومته مجاملاً ولا مداهنًا .. بل كان واقعيًا أكثر من الواقع .. كانت المغالاة فى ابراز الواقع تصل احيانًا إلى الدمامة ، وتصرخ فوق لوحاته لتهز الوجدان بعنف .. كانت نظرة تحليلية نابعة من ملامسة مباشرة للواقع بصدق دون رياء .. وكانت صراحة طيبة لا تخدش ولا تريق ماء الوجه ...

بهذا الحماس بدأ الفنان العائد إلى وطنه رحلة الابداع .. بدأها بالتعرف على مظاهر الحياة الاصيلة فى بلده .. فراح يطوف بالأحياء الشعبية والقرى باحثًا عن التجمعات البشرية التى مازالت تلبس الجلباب وتمشى حافية الاقدام وتأكل على

الطبلية ... وطافت ريشته بالأسواق والحقول والدروب العتيقة والمقاهى البلدية وحفلات السمر تشارك أبناء الشعب معاناتهم وسمرهم ، وتستمع إلى شاعر الرباب وهو يحكى القصص المثيرة التى يواجهون بها الحياة بابتسامة طيبة تحفظهم من الانهيار كمدا ...

وكان «راغب عياد» لا يقف موقف المتفرج يسجل ما يراه بنظرة السائح .. بل كان - كواحد من صميم هذا المجتمع - يشاركهم أحاسيسهم ومعاناتهم .. فهو لا يستطيع أن ينكر الواقع لأنه واقع موجود وقائم .. ولكنه لا يقبله قبول المرحب المتفائل .. وإنما كان يعرضه على علاته ، وينقده فى أعماقه .ولذلك لم تكن ريشته ريشة «ناقلة» وإنما ريشة «ناقدة» ... تحكى عن مشاهداتها بلهجة فيها شىء من التهكم الذى لا يصل إلى درجة السخرية والاستهزاء والتحقير ، وإنما يقصد به التهويل المأسوى الذى يصدم المشاهد لكى يفيق ، أو يجعله يتعاطف مع الواقع وينفعل به ويخرجه من سلبيته ..

ثم بعد ذلك راحت الريشة اللماحة تكمل جولتها فى أديرة مصر القبطية .. وتشارك الرهبان حياة التقشف والزهد . وتعكس هذا المناخ بنفس الزهد اللونى والخطى فى تكوينات بسيطة ومريحة ولكنها تتميز بصرامة وخشونة مشبعة بروح صوفية تشوبها زرقة أثيرية ورمادية غبراء ...

ولم يكن التقشف فى التعبير مقصورًا على نبذ مباهج اللون التى كانت تطل من لوحاته عندما كان يصور مظاهر الحياة الشعبية كرقص الخيل والأعياد وحفلات الزار وخلافه ، وإنما شمل الزهد أيضًا نوع الخامات التى يستخدمها فى التعبير عن هذا المناخ الرهبانى .. اختار أرخص أنواع الورق ، واستعمل المداد العادى والاحبار بدلاً من الألوان الزيتية ، وغمس فيها أعواد الخشب التى كان يبرى أطرافها بنفسه ليرسم بها خطوطه القاسية الثقيلة التى تتشابك فى ايقاع بطىء مثل

ايقاع الحياة فى الاديرة البعيدة عن العمران . ويكحل بها العيون التى تحملق فى استسلام قدرى خال من أى تعب .

وإذا كان كتاب «وصف مصر» مفخرة الحملة الفرنسية الكبرى لما حواه من تسجيل كامل للحياة المصرية فى ذلك العصر ، فإن ما صوره «راغب عياد» خلال حياته الطويلة يعتبر وصفاً جديداً لمصر أكثر صدقاً وعمقاً . يلقيه عن طريق المواويل اللونية التى يغنيها بصوت أجش على رباب من وتر واحد

* * *

السجينى .. وعروسة المولد !!

فى حى باب الشعرية الذى ترسبت فى قاعه بقايا حضارية تشكل اخلاقيات أهل الحى . هى كل ما تبقى لمصر من عراقة ماضيها ، حيث مازالت الدروب الضيقة يفوح منها عبير الأصالة ، وأصداء حكايات بطولية تتناقلها الألسن وتثير فى نفوس أهل الحى معانى الشهامة والرجولة والنبل التى ترسم الخطوط العريضة لسمات ابن البلد .

فى هذا الحى الذى تطل منه المشربيات من الجدران العتيقة ، وكأنها البراقع التى تخفى وراءها بنت البلد مفاتنها وهى تختال فى دلال على ايقاع خلخالها الفضى ، وهفهفة ملاءتها التى تفضح ثناياها خطوط جسدها الشهى ، فتلاحقها نظرات أولاد الحتة وفتوات الحارة ... ... فى هذا المناخ المعطر نشأ فناننا الراحل «جمال السجينى» .. وبه ارتبطت طفولته .. ومثلما يحدث للطفل الرضيع عندما ينتزع من أحضان أمه قبل أن يصلب عوده ، فيلاحقه الحنين إلى دفء الأمومة طوال حياته .. فيظل يطارده بعشرات الصور التى يطويها عقله الباطن فى ثنايا اللاشعور ، لتطفو بين الحين والحين فوق السطح ... بمثل هذا الحلم الجارف إلى دفء الأمومة ارتبطت طفولة السجينى بعروس المولد التى كان يطيل الوقوف أمامها فى مولد سيدى الشعرانى منبهرًا بألوانها الزاهية ، وبما تشعه المرايا والورق المفضض من بريق خلاب ، وهى تحملق فى وداعة وبراءة بعينين مكتحلتين ونظرات ساذجة فيها نداء غامض أحلى من السكر الذى يتكون منه هيكلها المخروطى ..

أحب «السجينى» عروس المولد .. «المعنى» .. ممثلاً فى أمه وأخته وعمته وخالته وبنت الجيران .. !!

وأحب فيها «الشكل» والصورة التى كان يتمثلها بخياله كحورية من حوريات الأساطير التى كانت ترويها له جدته قبل النوم ، أو تلك التى كان يشاهدها من خلال فتحات صندوق الدنيا فى حكايات ست الحسن والجمال والسفيرة عزيزة ..

لقد بهره التمثال السكرى الذى يلمع تحت الأضواء ويشع منه العديد من الإغراءات ، فكان بكل طفولته يتساءل ، كيف يمكن أن ينسخط الإنسان بهذه الصورة ويتحول إلى هيكل من السكر بهذه الحلاوة وبهذا الجمال !!

وقيل له يومئذ .. هذا تمثال . !

ولم يدرك معنى كلمة تمثال إلا عندما أكتمل نضجه وعرف أن أصابع الإنسان تستطيع أن تشكل وتخلق وتصنع أشياء كثيرة شبيهة بعروس المولد ..

وعندما التحق بكلية الفنون الجميلة ، اختار القسم الذى يصنعون فيه التماثيل ، والذى يستطيع فيه أن يشكل الطين ويجسمه ويصنع منه عرائس أحلامه التى بدأت تزدحم فى خياله المراهق .

وبقيت عروس المولد تطل على الشاب من وراء ضباب الماضى البعيد وتحيل نظرته إلى رومانسية حالمة امتزجت بالطين . وتمخضت عن عشرات التماثيل التى تعكس فورة شبابه ونبض قلبه وخصوبة خياله .

وسافر إلى باريس وروما ... وشاهد حسان أوربا الشقراوات .. فلم تتحرك شعرة واحدة فى وجدان الشاب العاشق ، وإنما ظلت أوتار قلبه ساكنة خامدة لا تحركها الأنامل الشقراء .. كانت أحلامه مرتبطة ببنات بلده .. كانت الصورة التى شاهدها فى طفولته غائرة فى أعماقه لا تبرح مكانها .. ولا تسمح لأية صورة أخرى أن تحل محلها .. كانت عروس المولد هناك .. متربعة على عرش قلبه .. تلمع تتلألأ وتشمخ .. لتصبح مصر كلها .. الأرض والهواء والمجتمع والإنسان والفن .. لتصبح قضيته المسئول عنها وجدانيًا ووطنيًا وإنسانيًا ...

وتعلم الفنان لغة الغزل والفروسية .. فراح ينظمه شعرًا مجسمًا .. كلماته الكتل ، وقوافيه الفراغات ... ومادته الطين ... ومضمونه «مصر» .

كانت هذه عروسته كما يريدها أن تكون .. أو كما يحتفظ بها خياله فى صندوق ذكرياته الطفولية .

صنع لها أكثر من تمثال ... أصبحت بطلة أعماله كلها .. صنعها كفلاحة من صميم القرية المصرية .. مكتملة الحسن . مرفوعة الرأس ، بهية الطلعة ، رشيقة القد ، فيها رقة وصلابة ، وجمال وطهارة ، وصفاء وغموض ... صورها وهى تحتفل بليلة زفافها فى موكب الحضارة راكبة فوق ظهر «أتان» تحيط برأسها الشامخ هالة مروحية مستديرة كتلك التى تحيط بعرائس المولد ، تحتشد فوقها الزخارف العربية البارزة وكأنها تقول : هذه عروبتى ومصريتى تكللان رأسى ، وتتوجاننى بالعزة والكرامة ..

وفجاة ... بلعنة أبناء الأيام الستة التى حطمت عروس أحلامه .

كان وقع النكسة على قلب الفنان العاشق أقوى من أن يحتمل ... تحولت كلمات الغزل إلى مرثية سوداء . لم يجد الكلمات التى تمتص مرارته .. أمسك فرشاته وألوانَه وراح من خلالها يصور حطام واشلاء عروسه الحسناء .. عروسه الضحية ...

رسم عشرات الصور ليصنع منها ملحمته الحزينة .. استعان بالمرايا والورق المفضض لكى يكون أكثر صدقًا وأبلغ تعبيرًا ...

رسم عروسة المولد مصلوبة .. ورسمها مهشمة الرأس ، ورسمها عرجاء تمشى على عكازين .. ورسمها مبتورة الساقين تتسول على قارعة طريق .. رسمها تخفى عينيها خجلاً .. ورسمها عارية ممزقة الثياب وهى تحاول اخفاء عارها وعورتها ... ورسمها محطمة كبناء شامخ انهار عقب زلزال مدمر ...

وامتلأ مرسمه بمأساة قالب السكر الجميل الذى تحول إلى حطام ... وازدحمت الجدران بصور الفجيعة المروعة .. وعاش هذا الكابوس ست سنوات ...

وفجاة مرة أخرى ...

رأى «السجينى» عروسه تبعث من جديد .. رآها تنفض عنها الأكفان المتهرئة .. تلقى بالعكازين وتزيح الانقاض ، وتطرد الغربان السود .. وتندفع كاعصار نحو الضفة الشرقية لتغسل العار . وفى أحضانها جنود أبطال يجدفون فى طريقهم لدك حصون العدو . والعودة بأكاليل الغار ..

وحدثت معجزة ٦ أكتوبر .. واستردت العروس كرامتها .. وقررت أن تقف عند مدخل القناة عملاقة شامخة كما كانت دائماً .. بارتفاع أربعين متراً .. لتعلن عن انتصارها .. وترحب بالسفن القادمة من كل اتجاه . وفى يسراها غصن الزيتون .. وفوق راحتها اليمنى كلمة ترحيب وفى أحضانها الجندى المصرى الذى صنع النصر ...

إنها عروس السلام .. التى صنعها «السجينى» قبل أن يرحل .. ليست عروسا من سكر أوحلاوه هذه المرة .. حتى لا يفتك بها النمل أو يلتهمها السوس .. وإنما من فولاذ وحديد .. لتبقى شامخة مرفوعة الرأس إلى الأبد .

* * *



«الفتاة والمنسج» — لوحة للفنان «ڤرمير»

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

رقم الصفحة

مطبوعات كتابى

التى قدمت لك فى هذا الكتاب الذى بين يديك باكورة أعدادها من الأدب المحلى «غير المترجم»

تقدم لك قريبًا :

الكتاب الثانى من سلسلة الأدب المحلى :

عندما تحب المرأة

مجموعة قصص مصرية بقلم

حلمى مراد

يليها فى كتاب تال :

عندما تخون المرأة

مجموعة قصص مصرية لنفس القلم

مطبوعات كتابى

التى قدمت لك من قبل فى سلسلة
« الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية » :

١ ـ اعترافات جان جاك روسو (خمسة أجزاء)
٢ ـ السيادة هوميروس (ثلاثة أجزاء)
٣ ـ جين إير (ثلاثة أجزاء)
٤ ـ مرتفعات ويزرنج (ثلاثة أجزاء)

وغير ذلك من أمهات التراجم العالمية !!

تقدم لك قريبًا :

الترجمة الكاملة الأمنية فى نحو الف صفحة ، على أجزاء ، لمأساة « جان فالجان » الخالدة :

البؤساء

أعظم ما كتب أديب فرنسا العظيم

فيكتور هيجو

ترقب الجزء الأول منها ، قريبًا جدًا

مختارات كتابى

تقدم لك قريبا
بين دفتى كتاب واحد
كل هذه الملخصات لكنوز الكتب الخالدة

- **الجمهورية**
  لأفلاطون
- **السياسة**
  لأرسطو
- **المدينة الفاضلة**
  للفارابى
- **يوتوبيا**
  سير « توماس مور »
- **الأمير**
  لمكيافللى
- **نظرية التطور وأصل الانسان**
  لتشارلس داروين
- **العقد الاجتماعى**
  لجان جاك روسو
- **الالياذة والأوديسة**
  هوميروس

مطبوعات كتابى

قريبا

الجزء الأول

للترجمة الكاملة الأمينة

أعظم ملاحم الأدب الروسى

التى كتبها أديب روسيا الخالد

ليو تولستوى

الحرب والسلام

WAR AND PEACE

ترقب

فى الجزء الثانى من « روائع المسرح العالمى » -

إحدى سلاسل « مختارات كتابى » -

والاجزاء التى تليه ،

كل هذه المسرحيات العالمية الخالدة :

رجل الأقدار (برنارد شو) **خطايا الحب** (أوسكار وايلد) **عذراء الغابة** (تاغور) **الحب الآثم ، أو سلطان الظلام** (تولستوى) **سيرانو دى برجراك** (ادمون روستان) **مروحة الليدى وندرمير** (أوسكار وايلد) **حلاق اشبيليه** (بومارشيه) **فوليون ، الثعلب** (بن جونسون) **البطل ، لوسيد** (كورنى) **برهان الحب** (جان أنوى) **مدرسة الأرامل** (جان كوكتو) **جيوكندا** (دانونزيو) **الجنس الآلى روبوت** (كاريل تشابيك) **٦ شخصيات تبحث عن مؤلف** (بيراندللو) **الأم** (جوركى) **بلياس وميليزاند** (مترلنك) **هيدا جابلر** (إبسن) **ريجوليتو** (هوجو) **مدرسة الفضائح** (شيريدان) **حلم ليلة صيف ، الليلة الثانية عشرة** (شكسبير) **هرنانى** (هوجو) **لعبة الحب والموت** (رومان رولان) **العدالة ، الابن الاكبر** (جالزورذى) **هوراس** (كورنى) **جوديث** (جيرودو) **سالومى ، زوج مثالى** (أوسكار وايلد) **بيجماليون** (برنارد شو) **الشقيقات الثلاث** (تشيكوف) **الجحيم هو الناس** (سارتر) **عربة اسمها الرغبة** (تنيسى وليامز) .

مطبوعات كتابى

التى قدمت لك هذا الكتاب الذى بين يديك والكتب الأخرى من سلسلة « الأدب المحلى » تقدم لك قريبا فتحا جديدا فى عالم النشر وفى مجال الأدب المسرحى

النص الكامل للتراث الكامل للفنان خالد الذكر

نجيب الريحانى

تقرأ فى هذه السلسلة الجديدة من مطبوعات كتابى أشهر روايات الريحانى التى شاهدتها وصفقت لها

النص الكامل لحوار كل مسرحية فى كتاب كامل مستقل

الدلوعة — **لو كنت حليوة**

إلا خمسة — **حكم قراقوش**

أحب حماتى — **٣٠ يوم فى السجن**

وغيرها . .

رقم الإيداع	١٩٨٤ / ٤٩٥٤

٢ / ٨٤ / ٥٣٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

الكتاب القادم ... بعد أيام

مختارات كتابى

روائع المسرح العالمى

| ١ |

* اوديب الملك : سوفوكل
* سلاح المرأة : أريستوفان
* ترويض النمرة : شكسبير
* المنافق : موليير
* فاوست : جوته
* وليام تل : شيللر
* نزاهة الحكم : جوجول
* يوميات محتال. : أوستروفسكى
* سوء تفاهم : كامى
* موت قومسيونجى : ميللر

هذه «الموسوعة» الفنية

عندما يكتب الفنان المصرى العالمى حسين بيكار لمحات من حياة نحو خمسين من أعلام الفن فى العالم فى جميع العصور ، ويضيف الى هذه اللمحات انطباعاته عن هؤلاء الاعلام ، وأهم ما أبدعوه من أعمال فنية خالدة ، ومن إضافات الى التراث الفنى العالمى .. فلا بد أنك ستلتهم صفحات هذا الكتاب ، وتعيد قراءته ثم تتركه ذخيرة لاولادك وأهل بيتك.

١٥٠ قرش